
صحن بامية
مع
خائن
د. حامد العطية

صحن بامية مع خائن

د. حامد العطية

2022م

لم يكن صديقاً، ولا هو معرفة عابرة، وما كنا زملاء دراسة أو عمل، تسلّل بيننا، حتى تعودنا عليه، وضلّلنا مثل كتلة جليد طافية، الظاهر منها قليل، تستهين به، ويلهيك عن الخطر المستتر. رأينا فيه ما فضلّنا رؤيته، وأغفلنا أسهم الظنون المصوّبة نحوه، وبصراحة كنا مغفلين، وما اكتشفت حقيقته إلا بعد فوات الأوان وإتمام مهمته، ومن واجبي تقديم الأدلة للمغشوشين به، قبل إصدار الحكم.

كنت أظن أن ساعات قلائل كافية لمعرفة إنسان، في معظم الحالات، معرفة تتجاوز السطحية ودون الحميميّة، حتى من دون مَلَكَة الفِراسة، أو مهارة التنويم المغناطيسي، هكذا بلغ اعتدادي بقدرتي على فهم الآخرين، استدرجهم بملامح البراءة، مزمنة مثل خوفي الطفولي، يظّنون أن وراءها روحاً معذبة أخرى، فلا يترددون في تعرية أنفسهم من كُسوة المظاهر. قلة يتربصون بالنساء عند منعطفات الشوارع المظلمة ليكشفوا لهن عن أعضائهم الجنسية، أحدهم تربّص بطالبات كلّيَة بيروت للنساء عند المدخل العلوي في حي قريطم، أما بقيتنا فينتظرون أول فرصة سانحة لكشف نفوسهم العارية من دون أقنعة، للتخفّف من أوزارها ولكسب العطف، إلا هو فقد لزم الحذر

للغاية، وداوم على ذلك حتى آخر لقاء بيننا، وحرص على كتمان أسراره إلا تلك التي لم ير ضيراً في كشفها.

يقال أن الانطباع الأول يرسخ في الذهن، أو في ذلك الحيز اللاواعي منه، ولا أرى المنطق هنا، وخير للخزفيّ الماهر كسر صحن الخزف المشوّه بدلاً من بيعه، كذلك فإن الإنسان العاقل يدرك احتمال تشوه الانطباع الأول، والأفضل محوه أحياناً، إذا لم يرد المجازفة بخسارة صداقات وصفقات، وهذا ما فعلته ليس للانطباع الأول فقط عن بهجت وإنما الثاني أيضاً وأكثر، حتى لم يعد بمقدوري الغاء المزيد منها بعد امتلاء ذلك الجزء المخصص من عقلي بحطام وشظايا الانطباعات المهشمة والممحوة عنه.

عرفته من كثب، وقفزت فوق الحواجز التي وضعها بيننا حتى أصبح ما بين الصديق والمعرفة العابرة، وحاولت جاهداً التسلّل خلف أقنعته المتعددة، والتنصّت على حواره الداخلي، وفشلت معظم الوقت، ولكن في مناسبات نادرة أرخى دروعه فشاهدته كما هو بعيوبه ونواقصه. لا تخلو صورته المرسومة هنا من ظلال، تعمدت تركها من دون رتوش، وإذا كانت معرفة النفس صعبة كما يقال فإن معرفة الغير أصعب بكثير.

تتوزع سِيرته غير المكتملة هنا على مشاهد وأحداث متفرقة ومفكّكة، تتناثر في الزمان والمكان. تكمن أخطر التفاصيل والأدلة الدامغة في المساحات الفارغة منها، ولكن ما لم تشهد عليه الأدلة أو الاعتراف الطوعي دلّت عليه الظنون الملحّة، وإن نقصها الدافع، ومهما كان فلن يبرّر فعلته، أو يستدعي تخفيف الحكم، لأن ما اقترفه لا يقبل الغفران.

عرّفني به صديق مشترك، عراقي مثلنا، و أفضل وسيط للتعارف، وهذا مديح كبير له، حتى لا يسيء الظنّ بالقصد منه. دعاني قاسم لزيارة بهجت في شقّته. ترددت في قبول الدعوة، لعلّني قلت له:

- اعفيني يا أخي قاسم من هذه المعرفة الله يخليك!

طمأنني بأنه شخص متميز عن أولئك الذين أما توافقهم الرأي أو تختفي من الوجود. في ذلك الوقت وكما هو الحال الآن لا تضمن أن يتحول عراقي تعرفت عليه اليوم إلى عدو في الغد أو حتى بعد دقائق لأنك أبديت رأيك في حزب سياسي أو قضية يختلف معك حولها، وبالنتيجة تكسب عدواً جديداً قد لا يتوقف عداؤه لك عند نظرات الشزر أو قارص الكلام. لأنّ قاسم لا يرد له طلب، وهو أيضاً لا يصبر طويلاً على الاختلاف معه سلّمت أمري له، وتبعته

من غرفتنا المشتركة في السكن المخصص للطلاب المستجدين في الجامعة الأمريكية في لبنان.

سكن بهجت مسافة دقائق مشياً من الجامعة. التصق بالجامعة وطلابها أكثر منا نحن طلبتها، الذين درسنا وأكلنا وتنفّسنا هواء الجامعة، حتى سأمنا منها، وتاقت نفوسنا لمغادرة مبانيها العتيقة والحديثة وساحاتها الرحبة وأشجارها المعمِّرة السامقة ومناظر البحر الخلابة المرئية من هضبتها إلى شوارع رأس بيروت الضيقة. كنا نضجر من حدائقها الغناء لأنها تذكّرنا بالاختبارات وسحنات الأساتذة المتعجرفين المتجهمين. نختنق بهواء البحر النقي المعطر بروائح الطحالب واليود فنهرب إلى هواء شارع الحمراء الملوث بدخان السيارات وسباب سائقيها ومناكفة المارّة الساخطين لأتفه الأسباب.

شقّته صغيرة في بناية قديمة متواضعة، وأثاثها بسيط، ولكنها واحدة من أعزِّ أمنيات طالب مثلي، يسكن في غرفة صغيرة مع زميل، ويشاركه الحمام سبعة طلاب، ينتمون إلى قارتين وثلاث ثقافات مختلفة، وعليه العودة للسكن قبل الحادية عشرة ليلاً وإلا أرسلوا اسمه إلى إدارة الجامعة، ومنها إلى سجلاّت سرية، ولكل طالب سجلّ. لم يكن سجلّي الشخصي في عليين في حكم الجامعة.

أخبروا رئيس مجلس إدارة البنك الذي سألهم عني، لأني طلبت الزواج من ابنة أخيه، بأني "ثوري" فقط من دون تحزّب، وهي أفضل شهادة حصلت عليها منهم، أما الخائف من تسّويد سجلّه وربما إلغاء بعثته الدراسية فيقنع بمشاهدة المسلسلات الأمريكيّة الرديئة ومسرحيات شوشو وبرامج المصارعة الحرة على القناة اللبنانية الوحيدة آنذاك، وينام مبكراً.

كنت أصغر الثلاثة سناً، أنا في الثامنة عشرة، وقاسم في أوائل العشرين وبهجت في أواخر العشرين، وتبدو الفروق صغيرة، ولكننا مثل أغصان الشجرة التي تظلل نافذة منزلي الخلفية في أواخر ربيع تورنتو الكندية، اخضرّت أوراقها القريبة أما تلك المواجهة لمطلع الشمس فقد اكتست بحمرة داكنة، لذا تحسد زوجتي جيراننا لأنهم يتمتعون بمشاهدة أوراق شجرتنا المحمرّة، وتنسى أن الأكثر حمرة هو أول ما يذبل ويصّفر ويتساقط، وحتى لو كنا أنا وهو من نفس الشجرة فقد كنت ورقاً أخضراً، أما هو فقد أنضجه ذلّ متوارث وسخط مزمن حتى الأحمر الغامق.

مرّ وقت طويل قبل ادراكي نفاد صبر بهجت، وشروعه في الانتقام من أولئك الذين اتهمهم بالتسبب في تعكير صفو فكره، ولم يكن يثأر لنفسه فقط بل

لأجيال سبقته، سكتت على ذلّها. أورثوه هوانهم واختزنت آلامهم ذاكرته، ولا بد أن شيئاً ما أيقظها وهيّجها. السخط الجاثم على عقل بهجت مزمن لا خلاص منه بيسر، يمسك بتلابيب الفكر ويدور به حيثما شاء، ومثل عصا البوميرانج الأسترالية يعود ليضربك إن لم تشفي غليلك من خصمك. ما بينه والجنون خيط رفيع.

قبل توطد معرفتي به وبحقده المخفي حسدته على وظيفته وشقّته الصغيرة وحريته، وعلى حياته الملوّنة الزّاهية مقابل حياتي المملّة الباهتة. أول ما يلفت نظرك فيه شاربه الكثّ، يغطي شفته العليا وكل المساحة بين أنفه وفمه، ويمتد حتى منتصف فمه، وشاربه غير متسق تماماً مع وجهه الصغير المدور والصلع المبكر، وله عادة قرض شعراته المتدلّية على فمه بأسنانه، وأحياناً يتكلم وأسنانه منهمكة بالقرض فتخرج كلماته مشوشة. تظن أنك أمام شخصين في جسد واحد، أحدهما يحدثك، وقد يدخل معك في نقاشات عويصة، والثاني في مكان آخر لا دليل عليه سوى قضم أسنانه لشاربه.

استقبلنا بترحيب والابتسامة لا تفارق شفتيه، وماذا يطلب الواحد منا من غريب تلتقي به أول مرة؟ ولكني كنت متيقناً بانه لقاء عابر ولن يتكرر، ليس

لفارق السن وإنما لأننا في طريقين مختلفين لا تقاطع بينهما، وموظف مثله سيبحث عن أصدقاء ومعارف بين أمثاله لا بين طلبة الجامعة المبتدئين الذين يعيشون على حساب عوائلهم أو حكوماتهم، ولو خرجوا مساءً فستكون عيونهم معلقة على عقارب ساعاتهم، وسيفارقونك قبل موعد إغلاق باب السكن الداخلي بساعة.

لا يكتمل التعارف بالاسم والوطن فقط، فالمطلوب أيضاً فتح الخريطة ووضع إصبعك على مكان الولادة، ليس من باب الفضول أو توطيد المعرفة بل لقياس المسافة الفكرية والاجتماعية الفاصلة بينكما، بالنسبة للكثيرين هذا أهم من كل التفاصيل الأخرى في الهويّة، وسبقني قاسم للإجابة، ومن دون سوء قصد، وبتفاصيل زائدة بأني من الجنوب، ووالدي شيخ قبيلة، وفي العهد الجمهوري تلك مسبّة، سمعتها كثيراً حتى تقبلتها ولم تعد تثير استياءي، أن يكون أبوك شيخ قبيلة معناه أن تكون رجعياً بالوراثة، وتحمل أثقال الظلم الذي مارسه أبوك على فلاحيه، وعندما لا يجد أحد ما يشتمني به يكتفي عادة بابن إقطاعي، ولكن معلم شيوعي في مدرستي الابتدائية وجده سبباً كافياً لتطويق عنقي بحبل غليظ وتوعدني بالسحل. لم يكن والدي إقطاعياً بالمعنى

الصحيح ولا فلاحيه أقناناً، و لكن في ذلك الزمن الإنقلابي كل الأمور المشتركة بينه وبينهم، الأصل القبلي والنسب والعيش المشترك، اضمحلّت أهميتها مقارنة بالفارق في الثروة.

تظاهرت بأني غير منزعج من الوصف، ولكن مشاعر صاحبي مرهفة، ولم يترك أي مجال للاحتمالات فراح يعدد محاسني: مؤدب، مجتهد، شغوف بقراءة الكتب، وختمها بقوله: أي كل الصفات التي لا تتوفر فينا، يقصد نفسه وبهجت.

في وقت ما بعد التعارف المطول انتبهنا لصوت خافت صادر من داخل الشَقّة، أثار فضول قاسم فسأله:

- هل لديك ضيوف؟

ولم ينتظر جواباً، قام ومشى نحو مصدر الصوت، ثم سمعنا ضحكته المميزة، قصيرة وعالية، يرفع رأسه نحو السماء ويقهقه ويطبطب على شعره في نفس الوقت:

- تعال وشوف ماذا يخبئ صاحبنا!

الخطاب لي. ترددت، ألم يصفني بالمؤدب؟ فهل أجاريه واقتحم غرفة نوم شخص لم أتعرف عليه إلا قبل دقائق.

ابتسم بهجت ورفع يديه مستسلماً.

أشار قاسم إلى الرجل المستلقي على الأرض وسأل: ما هذا؟

- هذا سائح، نفذت نقوده فاستضفته لأيام.
- تلملمهم من الشارع! ألا تخاف أن يكون سفّاحاً فيذبحك وأنت نائم أو على الأقل يرتكب جريمة وتتورط بسببه مع الشرطة؟
- افترض بأنه قاتل فهو أجنبي وأسوأ ما يمكن أن يحصل له في هذا البلد المهووس بالغرب التسفير.
- هل أنت متيقن بأنه حي؟ لماذا لا يتحرك؟
- وجدته هائماً على وجهه في الشوارع لذلك لا يقوى على الحركة.
- أظنه محششاً.
- ربما.
- ومن أي البلاد؟
- كندا.

- أول كندي ألتقي به في حياتي.

ثم التفت نحوي وسألني:

- هل تعرف كندياً يا أبي حميد؟

أبو حميد قفزة فوق الرسميات حتى تلك المعتادة بين المعارف.

- لا أعرف من الكنديين سوى البحيرات الكبرى التي حفظت اسماءها مرغماً في درس الجغرافية. المجرمون عادة يهربون من أمريكا وغيرها إلى كندا وليس العكس.

أغلب الوقت أحتمي بالسكوت، لأنه عملة ذهبية أشتري بها رضا الأقربين والغرباء، ولكن أحياناً تسيطر علي رغبة بالكلام، إذا لدي ما أقوله وليس لمجرد المشاركة أو مزاحمة الآخرين على فضاء الكلام المزدحم، والأصدقاء والمعارف يفضلون صمتي لأنه فرصة ليثرثروا، وغالباً ما لديهم الكثير، ولو تركت لهم المجال ليفرغوا مخازن الكلام داخل عقولهم وكنت مستمعاً جيداً فسيبوحون لك بأسرارهم، عاجلاً لا آجلاً، وكل ما عليك أن تلوذ بالصمت وتصبر وتنتظر، وكما تأتي الطريدة بقوائمها إلى الفخّ ستقع ألسنتهم في فخاخ صمتي، إلا هو لذا أنا مضطر هنا لتحليل تلك الفصول من حياة بهجت التي اطلعت عليها من كتب واستقراء ما خفي علي منها.

أكمل قاسم استهزاءه بسلوك بهجت مع الكندي المتشرد:

- عادة يحلم الشباب بلقاء فتاة هبية مفلسة فيعرضون عليها السكن المجاني مقابل...

ضحكة بهجت مبتورة، حلقة مفقودة ما بين الضحك والهمهمة، وبعد توثّق معرفتي به أدركت بأنها متصنعة، يخفي وراءها انزعاجه، وعادة ما تكون مقدمة لسخرية خفيفة، من النوع الذي لا يثير أعصاب المقابل، ومن منا يرغب بإثارة غضب قاسم المستطير؟

- مجاني! هل افتتحت ملجئاً لإيواء الهبيات المفلسات؟

- مسكين أنا وصاحبي! نحن حبيسان سكن الطلاب الجامعي، أما أنت فلديك شقّة فارهة في الحمراء.

- فارهة! إذا هذه فارهة فماذا تسمي الفينيسيا؟

- أفضل هذه الشَقّة على أغلى جناح في فندق فخم، هنا اخرج وادخل ومفتاح شقّتي في جيبي واستقبل من أشاء ما عدا هذا المتشرد وأمثاله.

هذه المرة يكتفي بهجت بهز رأسه فيكمل قاسم:

- تخلص منه فأنت لا تدري المشاكل التي يمكن أن يثيرها لك مع السلطات هنا، لو حدث ذلك فستتدخل سفارته ويطلقون سراحه مع الاعتذار، أما نحن فلا أحد سيسأل عنا.

- لا تقلق علي ما لم أخالف القانون فلا أخاف من أحد.

عفطة قاسم حادة، مدوية، ردّدتها جدران الغرفة، وتمددت حتى باب الشَقّة المغلق. فاجأتني عفويتها، وحتى قاسم أدهشه صداها، فصعد الدّم إلى وجهه، لكنه لم يعتذر. ربت على شعر رأسه، كأنه يريد الاطمئنان بأن شعره متسق في صفوف متراصة، وتخيلت سقوط فتات الدُّهن الجافة من رأسه، التي هيجتها يده، تتهاوى نحو كتفيه، مثل ذرات الثلج الصغيرة، التي تهطل في شتاء بلاد البوهيمي الكندي، منظر مقزز من أي شخص سوى قاسم، فقد كان من النوع الذي نسامحه على الكثير. تجمدت الحركة في الغرفة، إلا ربت اليد على الشعر، حتى عيناه لم تطرف بعد العفطة، وفي نظراته التي سمّرها على بهجت مقدمات للتحد، ورسالتها: حدث ما حدث وأنا بانتظار ردة فعلك، وجاهز للتصعيد.

تهيأت للتدخل لفض نزاع، بدا وشيكاً، من طرف واحد، ولكن بهجت ابتلع العفطة ورمزيتها. ابتسم وهز رأسه.

- بجد! ماذا ستفعل لو دقت بابك الشرطة وفتشوا الشَقّة ووجدوا فيها كيلو حشيش خبأه الهيبي؟

- الرجل لا يعرف طريق البرج وتقول لي كيلو حشيش!

- لا تخف عليه سيتعلم الطريق. نصف ساعة ويكون في البقاع. لماذا يأت هو وأمثاله؟ لا تقل لي لرؤية أثار الفينقيين.

- ولم لا؟

- كل آثارنا الأصلية نهبوها ووضعوها في متاحفهم وتركوا لنا نسخاً جصّية.

- حتى البشر عندنا مجرد نسخ أو هكذا يريدوننا.

كانت هذه مساهمتي في النقاش، كسرت بها صمتي. أنا اكتفي بعشرة كلمات بالمعدل في كل نصف ساعة، إلا في المناسبات الاستثنائية.

- ألم أقل لك بأنه فيلسوف؟

قالها قاسم وأتبعها بضحكة مجلجلة وضغطات خفيفة متوالية على غرّته ثم انصرفنا.

سمعت بأن الكندي البوهيمي توظف في وكالة سياحية، من أكبر الوكالات في بيروت، مكاتبها قريبة من الجامعة، ودفعني الفضول لرؤيته. لمحته من الرصيف المقابل جالساً وراء مكتبه. اختفت كل مظاهر البوهيمية. استبدل القميص الهندي المطرّز ببدلة رجال عمل زرقاء أنيقة، وحلّت ربطة عنق فاقعة اللون مكان قلائد الخرز وأيقونة السلام البوذية أو الفرعونية، والشعر الأشقر الذي حسدت غزارته لم يبق منه مقص حلاق لبناني إلا ما يرضي ذوق معتمري الطرابيش.

قبل أقل من شهر شاهدته صعلوكاً يفترش بلاط شَقّة غريب، لا يمتلك سوى الأسمال التي يرتديها. اللبنانيون يحلمون بالتغرّب إلى كندا أملاً بحياة أفضل، والكندي هجر كندا ليتشرّد في لبنان ويأويه بهجت، ثم خلال أسابيع نزع أفكاره المتمردة والهيئة المصاحبة لها ليعمل موظفاً سياحياً. انقلاب أشبه باللغز، إلا إذا كان تمثيلياً.

لم أعرف بصلة الكندي بالكردي إلا بعد شهور، ولم يكن الكردي الوحيد في تلك المقاطع من سيرة بهجت التي شهدتها. الكردي طالب مبتعث في الجامعة. التقيته في رحلة طلابية، وبعدها تجنبته ما استطعت. الرحلة إلى

مزرعة الجامعة في البقاع تقليد ثابت، موعدها بعد انتهاء التسجيل وقبل بدأ الدراسة. المشاركة فيها متاحة لكل الطلاب. وجدتها مملة، مسابقاتها الصبيانية مستنسخة من مهرجانات رعاة البقر الأمريكيين، واختتمت بانتخاب ملكة جمال المزرعة. في ذلك العام اختاروا إيرانية حسناء، وبعد سنتين أو أقل ذوى بدنها ثم اختفت، واشاعوا بأنها توفيت بمرض غامض.

اشتريت تذكرة وركبت الحافلة. رسخت في ذاكرتي مرورنا على طريق وادي الجماجم الضيق، منظر الهاوية السحيقة أفرز ما في جسمي من أدرينالين، ولم تهدأ أعصابي المتوترة حتى سماعي خوار أبقار المزرعة. كان الطالب الكردي في نفس الحافلة، ولكنه لم يكن مستجداً مثلي، سنة فقط تفصله عن التخرج. لا تعدك الرحلة بالكثير، القليل من المرح قبل هموم الدراسة، ولو كنت محظوظاً فستجتذب اهتمام طالبة، إلا هو فقد طرد المرح من أجواء الحافلة، وكان مثالاً صارخاً على الذكورية المنقّرة. أبقت سحنته المتجهمة المحل بجانبه على المقعد المزدوج فارغاً. بدأ مضايقاته بالسائق مشتكياً من قلة السرعة فلم يجاوبه، وعندما تجرأت طالبة وبعد إلحاح من رفيقاتها على الترنّم بكلمات أغنية معروفة سخِر من نشاز صوتها، ثم تحول إلى ضارب الدف: " وقف! أو

أشق دفك وأكسر حلقك"، قالها بلهجة عراقية ولكنة كردية، بين المزاح والجد، لكنها كانت كافية لإخراس الدف.

خجلت لأننا من نفس البلد، وأحياناً تكفي جثة فأر صغير لتلوث بركة بأكملها، فلا يلام من يبصق فيها. شوهت صورة العراقي في أذهان بعض زملائي الجامعيين مناظر سحل الأحياء وتعليق الجثث على أعمدة كهرباء ومحكمة المهداوي والكل يتذكر عبارة "ما أكو أوامر"، وانعكست تلك الصورة في نظراتهم المرتابة نحوي، حتى توطدت المعرفة فقال لي أحدهم وعلى سبيل المديح:

- هل أنت واحد منهم بالفعل؟ لأنك لا تتصرف مثل بقية قومك.

في المزرعة التقيت بطالب أرمني من بغداد. تعارفنا اثناء تسجيل مواد الفصل الأول. في السنة النهائية أو ما قبلها في كلية الزراعة، تهلّل وجهه لرؤيتي. شبك ذراعه بذراعي، وكانت تلك عادته، وتولى توجيهي بخطوات قصيرة، لأن قدمه العرجاء تنتعل حذاءً ثقيلاً يبطأ حركته، ولكنه لحق بالكردي وعرفني به. تذكّرني الكردي من الحافلة:

- هل رأيت كيف أرعبتهم؟

أثناء رحلة العودة جلس الكردي بجانبي. زاحمني على المقعد، وكتم أنفاسي بروائح البصل والثوم من طعام الأرمني الذي اختطفه من يده، غير مكترث لاحتجاجه وتوسلاته، وقبل اللحاق به كان الكردي قد التهمه، وتمنيت بخبث لو غصّ به. كرهته وكرهت نفسي لأني لم أمتلك الشجاعة الكافية للجلوس بعيداً عنه حتى يعرف الجميع وخاصة الفتيات بأن الروائح الكريهة التي زكّمت أنوفهم صادرة منه.

في لقائنا الثاني كان ساخطاً أيضاً، وأشد من المرة الأولى. كنت في طريقي لسكن الطلاب المستجدين، عندما رأيته صاعداً الدرج من مباني الكلّيات العلمية، الواقعة في المدرج الأوسط من المدرجات الثلاثة التي تحوي مباني الجامعة، الأسفل عند مستوى شاطئ البحر ملاعب ومسابح والأوسط للعلوم والأعلى للطب والعلوم الاجتماعية. توحي بوجود هيكلية للمعارف والأنشطة، الرياضة في القعر وفوقها العلوم وتتربع الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والطب على القمة، ربما هكذا كان ترتيب الأهمية عند تأسيسها لكنها بالتأكيد تغيرت، وعندما دخلتها كان الاختصاص الأهم هو الذي يضمن لخريجيه الدخل الأعلى.

ازداد هيجانه لدى رؤيتي، وارتفع صوته بالسباب من دون اكتراث لبقية الطلاب الرائحين والغادين، وغضبه من النوع الذي قد يهدأ بعد نوبة طويلة من الشتم والتهديد بالانتقام، لكن لن يطفأه سوى العنف. بدأ من دون مقدمات وبشتيمة:

- ابن الكلب اعطاني درجة ستين في المادة!
- ولكنها كافية للنجاح.

صرخ في وجهي:

- أي نجاح بابا! أنت جديد وغشيم بعدك لازم أحصل على معدل سبعين بمواد الاختصاص وإلا فقل على التخرج السّلام.
- هل اعترضت؟
- ما فائدة الاعتراض؟ كلهم عصابة سيقفون معه.

لم أجد ما اقوله لتسّكين غضبه فسكت. برقت عيناه وهو يبحلق بي، وخفت على نفسي. إن لم يستطع الانتقام من الأستاذ فسيصب جام غضبه علي، وأنا هدف سهل، ثم اكتشفت خطأي.

- نفّست القليل من حرقة قلبي وبصقت عليه.

بصق على الأستاذ، ولا يزال غاضباً فما الذي يشفي غليله؟

- إن شاء الله ما تكون لذلك نتائج سيئة.

- ليكن فلم أعد أهتم.

- دعنا نذهب إلى مقهى الجامعة ونشرب عصيراً أو قهوة.

لم يرد على دعوتي. ودعني برذاذ بصاقه ومضى نحو مخرج الجامعة، وتابعته بنظراتي حتى اختفى في شارع بلس.

سألت عنه بعد أسبوع، لم يستدعه عميد الطلبة، الذي اغتاله طالب بعد سنين، أثناء الحرب الأهلية أو بعدها. عقوبة الاعتداء على أستاذ الطرد، ولو تساهلوا معه لعلقوا انتسابه لسنة أو فصل دراسي، لكن أن يبصق بوجه أستاذ، أمريكي لا لبناني، وينجو من العقاب، فمنافية للمنطق إلا إذا تدخلت يد خفية لحمايته.

أساتذة الجامعة متكبرون، استرضاهم الطلاب، ليس بالاجتهاد في الدرس فقط، بعض الأناث بالجلوس في الصفوف الأولى والكشف عن أفخاذهن، وأكثر من ذلك أحياناً، أما الطلاب الذكور فترددوا على مكاتب الأساتذة، ليسمعوهم التملُّق الممجوج، حول عبقريتهم وعظمة شخصياتهم، والبارعون

في التمثيل رقرقوا الدموع في أعينهم للتعبير عن مدى تأثرهم بفكر الأستاذ الذي غيّر مسارات حياتهم، وأنقذهم من الضياع، وعوّضهم إهمال الوالدين، وقسوة الآباء، بالمقابل فقد يمنّ الأستاذ على الطالب بدرجة أو أكثر. ذهب طالب بحريني لاستشارة أستاذ في مكتبه، ومن تهيبه من المقابلة طرق الباب برقة، ثم دخل، فوجد بأن طالبة سبقته، وتربّعت في حضن الأستاذ، وقد أطبق فمه الخمسيني على الشفاه الغضة فتراجع بسرعة، ولم ينظر خلفه، وغادر المبنى راكضاً، ولم يتوقف حتى دخل غرفته في سكن الطلاب، واغلق الباب وراءه، ومرت أيام وهو يحاول إقناع نفسه بأن الأستاذ لم يره، لأنه كان مستغرقاً في عناق الطالبة الحسناء، وعيناه مغمضتان، ولو فتحهما فرأس الطالبة وشعرها الكثيف سيحجبا رؤيته، لكنها التفتت في اللحظة التي سبقت إغلاقه الباب، مما أثار موضوع جدل آخر مع نفسه حول إن كانت الفتاة تعرفت عليه وكشفت هويته للأستاذ، وعندما لم يحسم الجدال مع نفسه لصالحه صارح أصدقاءه بمخاوفه، فتندّروا عليه.

خاف زميلنا البحراني من أستاذه لأنه شاهده يحتضن ويقبّل طالبة، ولم يخف الكردي من نقمة الأستاذ الذي بصق في عينه وشتمه، ثم ذهب لتأجير

رداء حفلة التخرج وأخذ الصور بالرداء للكتاب السنوي، وكأن تلك البصقة أحد شروط التخرج.

شاهدته بعد ذلك من بعد. كان يمشي مزهواً، بصدر منفوخ ونظرات متحدية كالأشقياء. مرّت بجانبه فتاة فالتفت وكلّمها. خمّنت بأنها مغازلة. اضطربت مشية الفتاة. طأطأت راسها، وسارعت الخُطى مبتعدة، لعلها دعوة فاحشة أقرب منها للمغازلة.

فرقتني السبل عن زميلي الكردي لكنها جمعت بينه وبين الكندي، نزيل شقّة بهجت، المتحول من بوهيمي إلى موظف سفر وسياحة، لا أتذكر ناقل الخبر، لكنه سمع بصفقة ضخمة بينهما، قيمتها عشرات الألاف من الدولارات أو ربما الليرات، ليس مهماً، في حينها كان الدولار يساوي ثلاث ليرات، لا الألفات كما هو اليوم، وتعجبت مرة أخرى، من حظوظ الكردي، الذي يبصق في وجوه الأساتذة، ويهدد بشق الأفواه ويتفاخر بتخويف زميلاته، فيكافؤنه بشهادة، وهو آخر من تتوقع له النجاح في إبرام أي صفقة مربحة، ثم ما له والسياحة وهو خريج زراعة؟ نسيت التفاصيل، ولم يعلق في ذهني غير الاندهاش والتساؤلات وقليل من الحسد، فأنا من المنحوسين، أو هكذا أصنف نفسي.

تخرّج الكردي، وغادر لبنان، لم أسأل إلى أين، فهو طالب بعثة، ولا بد أن يعود لبلاده.

مرّ الصيف سريعاً، بين الأهل في بغداد، ثم عدت للجامعة، وأفضل ما في العودة لقاء الأصحاب، وأمتع الأوقات تلك الأيام، قبل بدأ الفصل الدراسي، فلا كتب عقيمة ومملّة ولا أساتذة متجبرون، وشمس الخريف دافئة على وجهك، دون أن تسيل عرقك. أحسن مكان لاستقبالها في شرفة الميلك بار (بار الحليب)، مقهى الجامعة الرئيسي. البار اسم على غير مسمى، وأضافوا إليه الحليب لتمييزه عن حانات الخمور التي تملأ شوارع المدينة. يحلو لي الجلوس وفي يدي صحيفة مفتوحة، حتى لا يظنون بأنني أراقب الطالبات، وأترّصد الجدد منهن على عادة زميلنا السابق الكردي، ولأن حرب النكسة لم تقع بعد كنت أتجنب أخبار السياسة العقيمة، وبعد استعراض عناوين الصفحة الأولى أتوقف عند الصفحة الرابعة، المخصصة لأخبار الجرائم والحوادث، لا بد أن نزعة غير سوية تدفعني لذلك، وفيها وجدت خبراً عن الكندي.

ترك الكندي البوهيمي وظيفته في شركة السفر والسياحة، وغادر في الصيف، وبتذكرة على حساب الشركة، وفي حقيبته عشرات الألاف من أموال

عملاء الشركة الذين باعهم رحلات سياحية وهمية، وتذكّرت الكردي شريكه في الصفقات السياحية، هو الآخر غادر ولم يعد، وفي حقيبته شهادة ممهورة بختم الجامعة الأحمر، ولم يترك وراءه سوى ذكرى بصاقه على الأستاذ الأمريكي، واكتملت الصورة في ذهني بوجه بهجت، الذي ساعد الكندي في التخلص من أسماله وتشرّده، وأوصله إلى وظيفته.

تظلّل شرفة بار الحليب المواجهة لمتجر الكتب الجامعية شجرة عملاقة، عمرها أطول من عمر الجامعة، التي احتفلوا بمرور قرن على تأسيسها ذلك العام. تمتد أغصانها في كل الجهات، وتزخرف أوراقها أشعة الشمس الباهتة الساقطة فوق رأسي، وتتمايل أغصانها الثقيلة ببطء فتغمز لي الشمس. أغمض عيني ويعطل عقلي رسائل حواسه، فأنفصم عن المكان، ويسرح عقلي في تحري الاحتمالات، الكندي المتحول من هيبي إلى موظف سفر وسياحة محتال، والكردي الفظّ الذي يبصق على أستاذه فينجح، وهو شريك الكندي، وبهجت ثالثهم، فهل كان شريكاً لهما أم بريء ساقته المصادفة للتعرف عليهما وربما طيبة القلب؟

في أول سنة في الجامعة، تسلط على ذهني خوف الفشل، لدرجة الوسواس والذعر، كنت أقضي الساعات الطوال في الدراسة، ولا وقت للراحة والمتعة إلا القليل، على مضض، أو نزولاً على إلحاح زميل، ترى بين عينيه كآبة، وفي نبرة صوته توتر غير اعتيادي، فتتذكر السعودي المنتحر، وتضطرّ إلى مجاراته، حتى لا تتكرر المأساة، فتلوم نفسك، لأنك لم تعطه دقائق من وقتك، نقضيها في مقهى أو متسكعين في شارع الحمراء.

صورة ترد لذهني، لا أتذكر إن وصفتها لأحد، أو اكتفيت بإيداعها في مخازن الذاكرة المكتظّة، الصورة لشوارع ثلاثة، قضينا فيها وحولها سنين الدراسة، أولهما بلس، اسم أحد مؤسسي الجامعة، ومعنى بلس بالإنجليزية البركة، فهو اسم على غير مسمى أيضاً، كنا ندرس ونسكن في مساكن الجامعة الواقعة على هذا الشارع وتناولنا وجباتنا في مطاعمه، وفي المقاهي المطلة عليه قضينا معظم أوقات فراغنا، بلس هو الأقرب لشاطئ البحر، يعلوه شارع الحمراء، ذائع الصيت، قصده كل من زار بيروت في ذلك الزمن، استحق التسمية في نظري، فقد كان منطقة حمراء وسط رأس بيروت، حيث تستعرض الفتيات ملابسهن القصيرة والضيقة، وتتسكع العاهرات بحثاً عن زبائن، وتكمن لك

الحانات والمراقص في الأزقة المتفرّعة منه، تحاول استدراجك بأضوائها الملونة. لا يصدمك السباب الفاحش وشتم الأديان والأرباب، فلا بد أن تكون تعودت ذلك بعد قضاء شهر واحد فقط، واكثر ما تخشاه العنف الذي يتفجر فجأة، حتمي مثل القدر، هو رقعة داكنة اللون في موازييك المدينة، ثابتة مثل تراب الأرصفة وسحب دخان رواد المقاهي وهواية سرقة منفضات السجائر من المطاعم بين الشباب، ومن دون إنذار تُشهر الأيدي والسكاكين والأمواس والأسلحة النارية.

في المساء وبعد الغروب يزدحم شارع الحمراء، ويحضر الجميع للاستعراض والتبختر والنظرات الوقحة. يصعد الطلاب من بلس سيراً على شارع جان دارك للوصول إلى الحمراء، وبعد التَّجوال مرة أو مرتين، حسب المِزاج والرفقة، يهبطون من الحمراء إلى الجامعة عبر جان دارك بالطبع.

أقصر الطرق بين صفوف الدراسة بلس والحمراء شارع جان دارك، وعبر شارع غاندي إن كنت طالباً في السكن الداخلي، لم أفكر بهذه المسميات ومدلولاتها حينئذ، ولم تستوقفني الخريطة البليدة للمدينة التي وضعت الحمراء أعلى من بلس، وجعلت الطريق بينهما شوارع مسمياتها جان دارك

وغاندي والسادات، وليس المقصود هنا الرئيس المصري، فهو في الستينيات كان شبه نكرة، وكان يجب أن أشعر بالحرج والحياء من جان دارك التي فضلت نار الدنيا على التخلي عن معتقدها وانا أصعد مع غيري من الطلاب هرباً من ملّل الدروس إلى الحمراء، وكيف أوتيت الجرأة على السير على جادة غاندي من دون بلوغ الصفاء النفسي أو تحرير ولو مقدار أظفر من جسدي من حب الدنيا، وأي سادات يرقون من شارع البركة إلى حمراء الدُّمن.

لم يكن عقلي منشغلاً بتدنيس الأماكن للأسماء عندما وصلت إلى نهاية جان دارك، وخطوات قبل دخول شارع الحمراء حيث يقع المدخل الجانبي لمبنى ستراند رأيته فجأة أمامي، كانت ابتسامته حاضرة، رفعت وجنتيه للأعلى فانحصرت عيناه بينهما وبين حاجبيه الكثّين، فلم يظهر منهما سوى ثقبان لامعان، أيخفي عينيه حتى لا أقرأ أفكاره وأسبر أغوار شخصيته؟ لا أظنها حتى قريبة من السطح، دفنها في الأعماق، حتى لا أراها أنا أو غيري، أو لعلها بعض مخلفات غزوات الرومان والمغول والتتر والعثمانيين، جاؤوا ونهبوا واغتصبوا، وتركوا وراءهم بعض دمائهم لتسيل في عروق بعضنا، أخفاها الأهل ستراً

للفضيحة، لكن كشفتها المورثات في الدماء، ترسم على وجوه الأحفاد ملامح الغزاة من عهد سحيق.

دعاني لزيارة مكتبه، فلم يجد ذهني المباغت سوى أعذاراً واهية فرضيت، معللاً نفسي بأنها ستكون زيارة قصيرة، مجرد إطلالة من الباب ثم الانسحاب لئلا اقطع على زملاءه في المكتب سلسلة عملهم.

تبين لي بأنه الموظف الوحيد، رئيسه وصاحب المكتب أجنبي، بلجيكي أو نمساوي، شاب هو الآخر، لم يتجاوز عمره الثلاثين، صغير القامة، على عكس الصورة المنطبعة في الأذهان عن النمساويين، أو حتى البلجيكيين، ملابسه أنيقة، ونظراته متفحصة. لم أرتح له، ولم أفهم نصف كلامه بسبب لكنته القوية.

وظيفة بهجت بائع في فرع لشركة استثمارات تبيع الأوراق المالية، من أسهم وسندات استثمار في شركات عالمية يقتنيها الملايين في كل بلدان العالم. فتح درج مكتبه، وأخرج حُزمة من الوثائق أشبه بشهادات جامعية بخطوطها المزركشة وأختامها الحمراء. قال لي بأنه يمتلك العشرات من هذه السندات،

قيمتها عدة ألاف من الدولارات، لو لم تكن استثماراً جيداً لما اشتراها، لم أصدقه تماماً.

بقدر الظنون التي ساورت نفسي تجاه بهجت عاتبتها وشعرت بالحاجة للتكفير عن ذنبها. لم يدر هو ما جال في نفسي، لكنه مع ذلك أحسن اختيار الفرصة، نوع من التوفيق الشيطاني، وها هي الظنون تعاود التسلّل إلى عقلي، تنبح داخله مثل كلاب القرويين الشرسة، يقتنونها خوفاً من اللصوص، ويتحملون عضاتها بين الحين والآخر مرغمين، تهاجمني من اليمين، فأتناول عصا الظنّ الحسن، تتراجع لتحاول من اليسار، فأشهر العصا، أشعر بالضعة وأنا أبارز الظنون، لا بد أن يكون هنالك عملاً أفضل يليق بي.

استرسل بهجت في تعداد فوائد الاستثمار، وأخرج من درج مكتبه ملفاً مليئاً بالتقارير والرسومات البيانية، كل الألوان فيه زرقاء واتجاهات الخطوط البيانية نحو الأعلى واعدة بأرباح جزيلة، لكن كلاب الظنون عاندت وأبت المغادرة. كانت ترتاح في الخلف، رؤوسها مسندة إلى قوائمها، عيونها مفتوحة، ترمقني بتلك النظرات الكلبيّة المعتادة، خليط من التوسل والعتاب والفضول والانتظار.

لم أنظر في عيون الكلاب، لئلا أرى الظنون مرة أخرى، واقرأ التحذير في رمشاتها، رمشة واحدة اشتري ورمشتان لا تشتري، ولم أكن متأكداً بأنها ستكون رمشة واحدة، لذا لم أكن بعيد النظر في ذلك اليوم، فتجاهلتها.

اشتريت القليل من الأسهم أو السندات في شركة الاستثمارات، كلفتني مئة دولار، مبلغ كبير بالنسبة لطالب، يساوي مصروف شهرين، خادعت نفسي بأنها صفقة مربحة وسأبيعها بعد حين بأضعاف ثمنها الأصلي فأربح مئات الدولارات.

طغى على صوته تزمير سيارة استرسل مثل صفارة إنذار عند انتهاء غارة جوية، جأرت بعده مكابح سيارة، وكأنها على وشك استفراغ ما في بطنها تلاه صوت ارتطام أجسام معدنية، وهنا تسمع أنيناً أو تتصوره في عقلك ليكمل الصورة، ويدفعك لتنكمش داخل جلدك مثل قنفذ بانتظار الأسوأ، وليس مهماً أنك على بعد عشرات الأمتار عمودياً وأفقياً، وداخل أربع حيطان ولن تمسّك شظية واحدة، حتى لو تفكّكت السيارة أو السيارات إلى جزيئات صغيرة وتناثرت في كل صوب.

قبل ارتفاع الأصوات الغاضبة لضحايا الحادث كنت أقف خلف بهجت عند نافذة المكتب المطلة على تقاطع الحمراء وجان دارك. توسّطت المشهد مجموعة من الأشخاص تحلقوا حول رجلين غاضبين، وفي الخلف سيارتان تضررت نتيجة الاصطدام مقدمة الأولى وباب السائق في الثانية. توقفت الاتهامات المتبادلة ونداءات "طولوا بالكم!" الصادرة من فاعلي الخير والفضوليين لتحل محلها الشتائم، التي طالت كل أقارب السائقين، وكأن والدتيهما وأخواتهما وبناتهما متخفيات داخل محركي السيارتين، ويتحمّلن كل المسؤولية عن الحادث، التهديد باستعمال أسلحة مخبئة لم يتأخر طويلاً، مسدس تحت مقعد السائق أو موسى حلاقة أو حتى مفك براغي صدأ، فلا بد من التهديد بسلاح وإلا فالرجولة تكون منقوصة والقريبات التي انتهكت أعراضهن على قارعة الشارع بالكلمات الجارحة سيغضبن لأن السائقين لم يهبا للذود عن شرفهن الرفيع المهان. تشهد شوارع وأزقة بيروت شجارات لأسباب تافهة، يختلفون على أحقية مرور أو راكب، يتطور السباب إلى عراك بالأيدي، وأحياناً بأمواس الحلاقة وما هو أخطر فيسقط أحدهم صريعاً، وفي الملاهي

والبارات يكون الخلاف على حظوة عاهرة يسمونها تجنياً على الفن والأدب أرتيست.

فجأة انحدرت سيارة جيب شرطة الفرقة 16 من الشارع المحاذي لمتجر الأ بي سي وبعكس السير، واستقرت عند المفرق فتفرق المارة الذين جمعهم الفضول بسرعة قبل أن يستخرج أفراد الدورية هراواتهم.

حولت بصري من الشارع إلى وجه بهجت. كنت قريباً منه لألحظ بدايات التجاعيد على وجهه، مثل خطوط أولية رسمها فنان على لوحة، سيعود لها فيما بعد ليغمقها بالألوان والظلال. استغربت نظرات اللامبالاة تجاه الحادث المروري. توقعت رؤية ولو القليل من الشّفقة أو حتى الرثاء. ليثبت لي بأن وراء القناع الذي يواجه به العالم كل يوم بعض الإنسانية، حتى لو كان اشمئزازاً أو تقززاً، دليل على أن البيت مسكون، مهما كان الساكن، خوفك من اللامسكون، والمجهول الذي يتخفى وراء الباب الموارب، يثير فضولنا ورعبنا، ولأن الرعب أقوى من الفضول نهرب. أسقطت احاسيسي على نظراته اللامبالية فوجدتها منفَّرة، وكأنه يتشفى، مثل قروي جلف من قبيلتي قرّت عيناه بثأره، بعد انتظار طويل.

استأذنت وخرجت إلى شارع جان دارك، وظل عقلي منشغلاً بملامح بهجت الجامدة حتى الجامعة.

بعد شهور التقيته صدفة. أخبرني بأن الشركة التي يعمل بها أفلست. كنت قد قرأت في إحدى المجلات الأجنبية خبر تدهور قيمة السندات التي اشتريتها. عرض علي شراءها بثمن زهيد فقبلت. كانت خسارتي متواضعة مقارنة بملايين العرب الذين انخدعوا مثلي. إرتبت به، فلعله كن متواطئاً مع صاحب المكتب، لقاء عمولة، لكنني استبعدت ذلك لأن بعض الظنّ يستدعي رد فعل ما، في الأقل التشهير ولو بطرف خفي. لم أخف الأمر عن قاسم، ولم يعلق، هو الآخر يحسن الظنّ بالناس، لأنه حريص على اكتساب أكبر عدد من الأصدقاء والمعارف العابرين، لذلك لم يكن ظنوناً، وحدها كلاب الظنون أغمضت عيونها، ولو نطقت لقالت ألم أحذرك!

أنستني الدراسة وأصحاب جدد بهجت لشهور، وكنت قد نسيت أو تناسيت المئة دولار عندما رأيته أحد الأمسيات. كنت ضجراً من وطأة الدروس وساعات المختبرات الطويلة والغربة، بالأحرى كنت بين غربتين، ففي الوطن كنت غريباً بين أهلي، وظلت الغربة قدري حتى يومي هذا، لذلك لم

أتهرب من لقائه. بعد الأسئلة المعتادة مشينا سوية في شارع جان دارك صعوداً نحو الحمراء، تأفّف عند مرور دراجة نارية بجانبنا. انتظر حتى ابتعد ضجيجها ليخبرني بأنه قبل أيام كاد أن يتسبب بقتل راكب دراجة أخرى، ضايقه عند عبور الشارع فمد قدمه ليرفسه، لكنه في اللحظة الأخيرة تردد وتراجع. فكّر بقتل إنسان لأنه ضايقه في الشارع فكيف أصنفه؟ اخترت له موقعاً قريباً من البدائيين الذين اضطهدوني لمجرد اختلافي عنهم.

قبل بدء العطلة الصيفية سافر بهجت إلى ألمانيا، لم أسأله إن كانت رحلة عمل أم سياحة، عادة يأتي الناس إلى لبنان للاصطياف، والطلاب مثلي يغادرونها وعلى مضض أحياناً إلى بلادهم للقاء أهاليهم.

عاد شخصاً مختلفاً تماماً، لم يعد ذلك الموظف الأنيق في شركة الاستثمارات، لا بالشكل ولا الهيئة. أطلق لحيته وترك شّعر رأسه ليسترسل على كتفيه، واستبدل بدله الثمينة بملابس من تلك الرائجة في سوق سرسق الشعبي. اكتملت صورة الهيبي باقتنائه سيارة فولكسفاجن فان من ألمانيا. أخبرني بأنه التحق بالدراسة في كلية هاجازيان الأرمنية، لأن الجامعة الأمريكية لم تقبله. استغربت ذلك، فمؤهلاته أفضل من كثيرين، لديه شهادة معادلة

للثانوية من إنكلترا، وأكملها في مدرسة بالشويفات على ما أتذكر، مثله مثل قاسم، ومهاراته اللغوية والرياضية كافية للنجاح في امتحان القبول، وحتى لو لم يكن من طلاب البعثات المدلّلين، والأقربون منهم المبتعثون على حساب النقطة الرابعة الأمريكية، ومثل غالبية المؤسسات التربوية لا تنطبق شهرة الجامعة على حقيقتها، فلا هي جامعة نخبة ولا طلابها متفوقون. بعد حين قادتني الظنون على أنه فضّل البقاء خارجها لغاية في نفسه. ذكرني بهتلر، هو الآخر رفضته أكاديمية الهندسة المعمارية في النمسا فتحول إلى سياسي ناقم ورسام فاشل، لكن الجامعة لم تكن على قائمة أهداف نقمة بهجت، واختار القرب منها ومن طلابها لغاية في نفسه، ستتكشف بعد حين.

كنت عنده بديلاً عن كاهن الاعتراف، ولا أظنه قصد كاهناً حقيقياً يوما ما ليعترف له، لعلهم أجبروه على ذلك في طفولته وصباه، لكنه عندما كبر تمرّد على تدين والده. تذكّر وملامحه تنطق بسخط مزمن ولهجة ساخرة إفراط والده في الصرف على الكنيسة القريبة من بيته. أهمل بيت عائلته القديم. بهت طلاء جدرانه، ونتأت بلاطات أرضيته، وخرّ ماء المطر ومبردات الهواء الصحراوية من السطح على غرف النوم الفوقية، واهترأت مقاعد غرفة

استقبال الضيوف، ولم يطرأ تغيير على محتويات المطبخ سوى استبدال نفط الطبخ بالغاز، لكن الكنسية استأثرت بمعظم اهتمامه ومحفظة نقوده. عندما عرفته كان والده مدفوناً في مقبرة كنيسته العزيزة، والعجائز اللواتي يداومن على حضور قداس الأحد فيها يتذكّرنه بامتنان كلما وقعت نظراتهن على الشمعدانات، سواء ذهبيات أم مذهّبات، ويترّحمن على روحه.

لم تكن السيارة العتيقة واللحية الكثّة والأفكار الجديدة كل ما جاء به من ألمانيا، تصاحب على فتاة ألمانية وأقنعها بالسفر معه. شاهدتها مرة واحدة في لقاء عابر، تجاهلتني بصلافة، أحيت في النفس تاريخاً أسوداً لقومها، شابة لم تبلغ الثلاثين من عمرها، لكن قسوة ملامحها أوحت بأنها أكبر من ذلك بسنين. لم تسكن معه، فضلت استئجار شقة مفروشة في أحد أزقة رأس بيروت، غير بعيد عن مكان عملها كساقية في إحدى الحانات. بعد أشهر أخبرني بأنهما افترقا، وتبين لي بأنها هجرته وتصاحبت على آخر. لا شك بأن رجالاً كثيرين ترددوا على الحانة، توددوا لها، وقدموا لها أو وعدوها بأكثر مما لدى بهجت، ولا أحد يجاريهم في الإغواء. حقد بهجت عليها وقرر الانتقام منها، لم يذهب إلى كاهن ليعترف، كنت البديل المتاح، ولن أفرض عليه التوبة وتكرار عشرة

صلوات التحية لمريم وأبانا الذي في السموات التي حفظتها في كلية بغداد اليسوعية. وعند بدأ كل حصة ألزمونا طلاباً مسلمين ومسيحيين بالاستماع للصلاة المسيحية.

لم يكن انتقامه وليد لحظات غضب. تخفى ليرصّد مسكنها. غطّى رأسه بقبعة صوفية، ولفّ نصف وجهه بوشاح أسود، فلم تبق مكشوفة سوى عيناه. كان الموسم شتاءً، ولن يجذب تخفيه الفضول والاستغراب، ولو رآه أحد السكان أو المارة فلن يتذكره. لديه مفتاح لباب الشَقّة، استنسخه برضاها أيام الود المتبادل، لكنه لم يدخلها من الباب، لأنها استبدلت القفل بعد انفصالهما بأيام. شقّتها في الدور الأول ومطلة على الجانب الخلفي من المبنى. اختار الوقت المناسب لذلك، تأكد بأنها تعمل في الحانة، ولن تعود إلا بعد منتصف الليل، وقد تذهب بعد ذلك إلى منزل صاحبها، ومجرد ذكره كان كافياً لتزداد حدة ملامح الغضب على وجهه. رصّ حاويتي قمامة، ليتسلقهما إلى شرفة شقّتها. دخل من باب الشرفة، لم أساله إن خشي أن يكون صديقها الجديد نائماً في سريرها. فتح خزانة الملابس، ومزّق ملابسها، وفتح الأدراج قرب سريرها، وبعثر محتوياتها على الأرض، وداس عليها، ولم يقل بأنه اخذ

شيئاً من ممتلكاتها، ويبدو أنه لم يكن حريصاً لإبعاد الشبهة عنه، فلو اشتكت للشرطة، وسيتعاملون معها بجد، ليس لأنهم مهنيون حريصون على العدالة، بل لأنها ألمانية، وان كانت ساقية في حانة، يخشون من تدخل سفارتها لو تهاونوا مع القضية، ونفيها حدوث سرقة لا يترك دافعاً سوى الانتقام، وسيكون بهجت أول المشبوهين.

لم تكن زوجة، ولا حبيبة، وعمر العلاقة بينهما قصير. خاطر بالسجن والافتضاح، وإصابة بالغة لو زلت قدمه وسقط من شرفة الشَقّة، ولم يكن متهوراً، لكن الحقد الذي حركه هجرانها كان الأقوى، ومِرجل الغضب داخل نفسه كان متقداً حتى قبل ذلك، وهي أوصلته حد الغليان، وفيما بعد تأكد لي وجود هذا المِرجل الجائش.

لا أتذكر إن كنت اكتفيت بالصمت يومها أو علقت على انتقامه، كان انتقاماً دنيئاً، فلم تكن الفتاة زوجته ولا خطيبته ولا هي قريبته، ولم يكن هو قروياً متعجرفاً، النساء في نظره ممتلكات، فلا يجوز لمن يمتلكها هجرانه، ليغضب عليها وينتقم منها بهذه الطريقة، فتخاف وتترك عملها وتغادر. هل قلت له:

- المسألة لا تستحق كل هذا والمخاطرة.

هو أضعف تعليق والأدنى على المقياس الأخلاقي والقيمي، والأفضل :

- لا يحق لك الاعتداء على شقتها وإرهابها. هي حرّة ومن حقها أن تختارك أو غيرك، ولا تنسى بأنها ألمانية وليست من مجتمعنا وبيئتنا.

وبالتأكيد لم أجرؤ على القول:

- هذا عمل جبان لا يليق بك.

فلو قلته لانقطعت الصلة بيننا، فقد أثبت بسلوكه بأنه لا يختلف عن بقية مواطنينا الذين يلقون باللائمة على الاكثار من تناول التمور أو وجبة من مرق الباذنجان، فتصعد حرارة الغضب إلى رؤوسهم ولا يستطيعون السيطرة عليها.

رأس بيروت صغير، الحي في المساحة وكذلك السكان في التعقل، لذلك يسارعون للاختلاف والتقاتل، ويكفيك نصف نهار من التجوال في شوارعها لمصادفة أصدقائك ومعارفك وحتى الذين تتجنب رؤيتهم. عند تقاطع شارعي جان دارك والحمراء، وعند الزاوية المقابلة لمقهى ستراند صادفت بهجت، وقبل الانتهاء من التحيات المعتادة اقتربت فتاتان منه. تحدثا معه بالإنجليزية، لم يعرفني بهجت عليهما، فوقفت غير بعيد وتابعت حديثهم. اجتذبت انتباهي مسحة براءة على الوجهين الخاليين من الأصباغ، لذلك قدرت بأنهما طالبتان

في الثانوية. بانفعال مبالغ سألته احداهما عن موعد وصول شخص ما، لم أتبين اسمه بسبب ضجيج الشارع، أو ربما لم يذكراه بالاسم. قريباً أجابها بهجت، ولم يفصّل. كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامته المصطنعة. ابتعدا من دون القاء نظرة علي. دارت أسئلة فضولية في ذهني، وكأنه قرأها، فباح لي بسره. الفتاتان عراقيتان، أو أن اباهما عراقي والأم أجنبية، طالبتان في الثانوية الأمريكية، حيث يدرس أبناء الدبلوماسيين وبعض نخبة البلد. لم تفارق الابتسامة وجهه وهو يخبرني بأنهما يريدان ممارسة الجنس لأول مرة، وامتنع عن تلبية طلبهما، لأن شقته المتواضعة وفراشه البسيط لا يليقان بهذين الحدثين الهامّين، فوعدهما بأن يتولى المهمة صديقه الذي يزور بيروت مرات في السنة، وينزل في كل زيارة في فندق فينيسيا الفخم، وهو المكان الأمثل لذلك. لم يكن رفض بهجت تعففاً ولا خوفاً من نتائج سيئة، بل كان كلّ اهتمامه منصباً على إرضاء صديقه. علقت بذهني بكلمة واحدة: قواد! تبعتها تساؤلات: لماذا تنازل عنهما لصديقه؟ وما هو الثمن؟ لم يكن بهجت رجل أعمال، يهمّه الحصول على صفقات من نزيل فينيسيا، والجنس في لبنان وغيرها وسيلة لتسهيل الاتفاقات وعقد الصفقات، ومن هو هذا الزائر المجهول الذي حرص على إخفاء اسمه والغرض من زياراته

المتكررة؟ قلت لنفسي لو كانت الفتاتان من أقارب بهجت فهل كان سينذرهما لصديقه؟ سمعته فيما بعد يذكر صديقه نزيل الفينيسيا، لكنه لم يتطرق للفتاتين، و لا أعرف إن كان بالفعل أهدى عذريتهما قرباناً لتلك الصداقة المشبوهة.

في عام هزيمة مرّة أخرى للعرب صادفته مرة واحدة، أو ربما أكثر من مرة لكن ذاكرتي المتخمة بالدروس لم تسجل سواها، وكان سلوكه غريباً. عند تقاطع شارعي بلس وجان دارك وحتى قبل سؤالي عن أحواله بعد غيبة طويلة بادرني بأنه يشعر بارتياح بعد فرك طبيب لغدة البروستات. لم تكن مزحة، وجاوبته بالصمت وتجاهل الموضوع. كنا شباباً، وربما قرأ أحدنا عن الفحص المزعج، لكن بيننا واحتمال تجربة هذا الاختبار ستمر عقود من السنين، ولا أتوقع أحداً سيخرج من عيادة ليخبر معارفه بأن طبيباً أدخل كفه في مؤخرته قبل قليل. حفّزت غرابة كلامه ارتيابي، فقفزت إلى عقلي الظنون بطريقته في المشي، لاحظت فيها سابقاً مسحة أنوثة، تقترب من التخنث في خطواته واهتزاز وركيه، فهل كان كلامه المقرف إطلالة رأس من داخل الخزانة السريّة التي يقبع فيها أمثاله؟ وهل كان تنازله عن الفتاتين لصاحبه وهجران الألمانية ناجم عن عجزه

أو ميله لجنس مختلف؟ لعل اضطراب نفسيتي في ذلك العام المشؤوم قادني إلى تلك التساؤلات الخبيثة.

مر عام آخر وحدث انقلاب بعثي آخر في بلدنا، وصفه هاشم جواد وزير خارجية الزعيم " الأوحد" قاسم وممثل الأمم المتحدة في لبنان بغزوة مغولية جديدة، لا أتذكر إن كان بهجت سمعها أيضاً من السياسي المتواضع الذي كان يشاركنا مجلسنا بعض أيام الآحاد في مقهى الأنكل سام مقابل الجامعة، بعدها بزمن قصير اغتاله سائقه الفلسطيني، بسبب طرده من وظيفته.

لم يتمالك بهجت غضبه وهو يصف مواجهته للملحق الثقافي في السفارة العراقية، ارتجف فنجان القهوة في يده. تنتابه أحياناً رعشة خفيفة في يديه ووجهه، لكنها يومها كان ارتجاف شخص مريض أو غاضب. انتهت صلاحية جواز سفره، فقصد السفارة في الرملة البيضاء لتجديده، وأحضر وثيقة التسجيل والدوام من الكلية. أستطيع وصف المشهد بدقة لأني مررت بنفس التجربة مع اختلاف النتائج. عبس القنصل بوجهه، ولعله سأله كما سألني: هل أطلقت لحيتك تديناً أم تشبهاً ببعض الشباب المائعين؟ أو كلام بنفس المعنى. التدين ممقوت عند الحكام الجدد، والتشبه بشباب ذلك الزمن

محتقر عند الملحق الجديد. اسم بهجت لا يدل على ديانته المسيحية، ولا أظن بهجت أخبره بذلك، وكان قرار الملحق حاسماً وعلى نهج المتسلطين في القصر الجمهوري:

- احلق ذقنك وإلا فلن نجدد جواز سفرك !

أخرجت المفاجأة بهجت عن طوره. قذف الملحق بجواز سفره، وتمنيت لو أصاب عيناً ففقأسها، وصفق الباب وراءه وهو يلعن الملحق والسفارة والحكومة. جاء دوري لتجديد سفري، وكنت ملتحياً أيضاً. أصرّ قاسم على مصاحبتي، وسمعنا من الملحق المأفون نفس الإنذار. وقفت عند الباب وخاطبته: أتريد مني حلق... أيضاً. ما بين حلق وأيضاً كان قاسم مطبقاً بكفه على فمي فلم يسمعها الملحق أو تظاهر بالصّمم. حلقت لحيتي مذعناً، وجددوا جواز سفري. بعدها بحوالي ربع قرن رفض نفس الحكام تجديد جواز سفري لأني امتلكت الشجاعة لأعارض طغيانهم الدموي، وحتى اليوم وبعد الاحتلال وتغيير النظام لم يعيدوا لي جواز سفري.

ما انطفأت سورة غضب بهجت. صمّم على الانتقام من النظام الذي خيره ممثله بين لحيته وجواز سفره. سارع إلى مكتب الأمم المتحدة للمطالبة بهوية

شخص بلا وطن، وردّه البيروقراطيون الأجانب والمحليون خائباً. صعّد من حملته الانتقامية. أعد منشوراً يطالب فيه بالحقوق والحريات لشعب بلاده، ووقف قريباً من مدخل متجر الأ بي سي في شارع الحمراء، ليلقي خطبة، هاجم فيها الحكام الجدد الذين حرموه من جواز سفره، ووزع نسخاً من منشوره على المارة الفضوليين. أخبرني بأن شرطة من مخفر حبيش الواقع آخر شارع بلس اقتادوه إلى المخفر، واستجوبوه، وبعد ليلة واحدة في الحجز أفرجوا عنه.

حسدت بهجت على شجاعته، حسداً ممزوجاً بقليل من الامتعاض، لأنه تجرأ على تحدي الملحق الثقافي ومن وراءه السفارة وكل جلاوزة النظام الجديد في سجن قصر النهاية، أما أنا فقد قبلت وبإلحاح من قاسم الرضوخ لابتزاز الملحق الأبعد فكراً وسلوكاً عن الثقافة. لم يمض وقت طويل حتى استعاد بهجت جواز سفر جديد، وسافر لرؤية عائلته، ولم يقتادوه من المطار إلى الأمن العامة. ولو وقف أحدهم أمام متجر في شارع الرشيد ببغداد، وازدرى النظام بنفس كلمات بهجت، أو أقل حدة منها، لما عاش ليشهد إشراقة أخرى للشمس، إلا إذا استبقوه أياماً معدودات للاستجواب والتعذيب.

احترت في تفسير إفلات بهجت من عقاب صارم، وكأن اعتلاءه الدرجات القليلة أمام متجر الأ بي سي ليلقى من فوقها نقداً قاسياً لحكومة بلاده وتوزيعه منشورات تدعو لقلب النظام الحاكم مزحة، أو سلوك شخص معتوه، لذلك لم يعيروه اهتماماً، ولا شك بأنهم عرفوا بذلك، وأول المخبرين الملحق المهان وموظفو السفارة، ولا استبعد مسارعة أنصار النظام الجديد من اللبنانيين الحريصين على إثبات ولائهم للإبلاغ عنه، وأحدهم عينوه سفيراً في أمريكا الجنوبية. عندما استقلت من وظيفتي الحكومية البسيطة، وغادرت العراق وصموني بالخيانة، وألغوا جواز سفري، وطلبوا من حكومة البلد الذي عملت فيه طردي من وظيفتي وإرغامي على العودة وكأني مجرم خطير أو معارض كبير، أما هو فقد سامحوه.

سأضحك مستهزئاً لو أن أحداً تصور بأن قوة غيبية أنجدته جزاءً للشمعدانات الذهبية أو المذهّبة المهداة من والده للكنيسة المجاورة لبيتهم، وأن يد هذه القوة ما فوق الطبيعة امتدت لتخفي وتمحو فعلته من سجلات حكومية وأذهان أناس ساديين، ينتظرون مع صباح كل يوم وبعد إفطارهم على صحن باقلّاء مقلية أو رأس خروف مشوي ضحية أخرى تنفّس عن كاهلهم

نزعاتهم المنحطة. لا بد أن أحداً من أصحاب النفوذ توسط ليغفروا له، ولا يهمني أي عذر افتعله، يكفي أن كلمته مسموعة لدى قادة النظام الجديد، ولم يرفضوا طلبه، حتى بعد أن عرفوا بأنه لا ينتمي لدينهم ولا من تكريت أو جوارها، ولا استبعد أن يكون أحدهم نبش في ملفات قديمة فتبين بأن بهجت اقترف من قبل ما أذابوا بسببه كثيرين بأحواض الأحماض. بعد سنين أخبرني بأنه كان أحد ركاب قطار أنصار السّلام في أواخر الخمسينات، ومثلهم لم يحمل معه حقيبة صغيرة، فيها ملابس وغيارات وأدوات حلاقة، ولعله كبقيتهم أيضاً اقتنى حبلاً للسحل، وهتف معهم وهو يلوح به: أحمر علمنا بيه منجل وشاكوش، أحمر علمنا! وكل من شارك في قطار الموت لا السّلام متهم بقتل العشرات من الرجال والنساء في الموصل وسحل الجثث وتعليقها على أعمدة الكهرباء، لكنهم ولو نبشوا سجلاتهم، وعرفوا بماضيه فقد غفروا له ذلك وسبّه للنظام وقادته، وأعادوا له جواز سفره.

ستكون هنالك أدلة أخرى على استهانته بسطوة النظام، ووجود يد خفية، تجنبه بطشها، وتغدق عليه أفضالها، أولها شهدته بنفسي أثناء لقاء عابر في بغداد. ترجّاني مصاحبته في مراجعة دائرة حكومية لإنجاز معاملة متأخرة.

دخلنا سوية قاعة فيها عدة مكاتب وموظفون منهمكون في العمل أو يتظاهرون بذلك. سأل أحدهم عن مصير معاملته فأجابه بأنها غير منجزة وعليه العودة بعد أيام. كلّنا في ذلك البلد البائس معوَّدون على سماع تلك العبارات من بيروقراطي النظم المتعاقبة، ونكون ممتنّين لو ردّدوها دون إيماءة طرد مهينة أو نظرات ازدراء أو تجاهل من خلف جريدة. لذلك فاجأني هياج بهجت، وبصوت عال أسمعهم قارس الانتقادات، لعلهم لم يسمعوها من قبل من رؤسائهم أو معلميهم لكنهم على الأغلب، ذكرتهم بتوبيخ آبائهم وأمهاتهم المصحوبة غالباً بصفعات قوية أو جلدات بخيزرانه أو مسطرة حساب على أكفّهم. توقعت أن يقوموا كرجل واحد، ويهجموا علينا بالصفع والركل، لكنهم خنسوا وراء مكاتبهم، وصمتوا فلا مسّبة بمسّبة ولا حتى كلمة احتجاج. حاولت تهدئته ولكن من دون جدوى، ولم يغادر المكتب إلا بعد أن تفوّه بعبارة كانت في ذلك الزمان، أشد من الكفر وسّب الرّب، فلا تسمع إلا داخل العقول:

- إذا لم يكن أحدنا من غير بلدة تكريت لا يحصل على حقوقه في هذا البلد بالهين!

ران السكون على القاعة، ولو كان للصمت مقياس كما للزلازل لارتفع إلى أقصى درجاته. كنت على وشك مغادرة المكان بسرعة ومن دون بهجت للنجاة بنفسي من مصير مظلم، ومقر الأمن العامة لا يبعد كثيراً، ولو تغلب الموظفون الواجمون على شلّلهم المؤقت، وقيدونا حتى يصل جلاوزة مدير الأمن ناظم كزار لكانت نهايتنا في قصر النهاية، لكن الموظفين بقوا مشلّولين حتى غادرنا القاعة، وتركته بعد قليل لأعود إلى بيت عائلتي شاكراً ربي على إنقاذي من تهور بهجت.

لا أتذكر في أي صيفية دعاني لبيت عائلته في الكرادة. عرّفني على والدته وشقيقتيه. بالعادة يحرك ضيف جديد أسئلة فضول كثيرة، أحدها إن كنت قريباً لبهجت العطية، مدير الأمن في العهد الملكي، وأُعدم بقرار من محكمة المهداوي في 1959، وربما لم يقتنع البعض بأن لا صلة تربطني به. ملابس والدته السوداء تعبير دائم عن ترمّلها وحزنها على زوجها. ولم يشاركها بهجت ذلك الحزن. كانت في العمر الصعب على التخمين ما بين الخمسين والستين، مترهلة مثل أغلب نساء البلد في عمرها، ولم تترك لدي انطباع بكونها قوية الشخصية، هي أعدت الشاي بنفسها وقدمته، أما الشقيقتان فقد انشغلا

بالحديث، لا يشبهان بهجت، قصيرتان، في مرحلة أولى من البدانة، ولو التقيتهما في الشارع فلن يستوقفك جمالهما. الأختان متزوجتان من شيعيين، وفي حي الكرادة يتجاور الشيعة والمسيحيين، ويتزاورون ويتشاركون الأفراح والأحزان، ويتحاب الشبان، وقد يتزوجون خلافاً لإرادة العائلتين. الأخت الكبرى متزوجة من مترجم للغة الروسية، درسها في الاتحاد السوفيتي، ومثل بهجت قصدها شيوعياً متحمساً وعاد منها مشكّكاً وناقداً. تندر أمامي على العمال في مصنع للساعات، شاهدهم كل يوم من نافذة مسكنه المطلّة على مدخل المصنع. يدخلونه بخطى ثابتة، ويخرجون منه مترنّحين، سكارى بفعل كحول تنظيف أجزاء الساعات، وكل ساعاتهم رديئة الصنع، تعمل أياماً ثم تتوقف. اختاروه مترجماً في القصر الجمهوري بالرغم من تاريخه السياسي، لعل تلك اليد الخفية التي حمت بهجت زكّته أيضاً. زوج الشقيقة الصغرى حلاق، يمتلك صالون حلاقة في شارع قريب. يأمّه موظفو الأمن العامة، ونسج علاقات وثيقة ببعضهم. كان معارف العائلة وجيرانها يقصدونه للتوسط لهم عند الأمن، لكنهم يتجنبون الاختلاط به وزوجته تخوفاً من كونه مخبراً.

توفي الأب المفجوع بعقوق أبناءه، وكل حسناته التي ظنّ أنه اكتسبها من خدمة الكنيسة لم تمنحه راحة دنيوية قبل راحته الأبدية. استأثر ترميم كنيسة الحي وتجديد أثاثها وشراء شمعداناتها بوقته ومعظم نقوده، حتى استحق تقديراً كنسياً رفيعاً، زينوا به صدره في احتفال مهيب. كان المفترض أن يرفعه النيشان إلى قمة حياته، لكن زواج بناته خارج الكنيسة وكُفران بهجت هبط بها إلى الحضيض. خالف بهجت عقيدة أبيه، رافضاً حضور قداس الأحد وممارسة الطقوس، وأسمعه سخريته المقيتة من كل مقدساته، وتمجيده سيرة خاله الشيوعي، وشجاعته في قتال قوات الجنرال فرانكو والكنيسة، وذكاءه الذي أمكنه من الإفلات من أسر قوات فرانكو ، إذ تخبأ في برميل كبير مليء بمياه الأمطار المثلجة. وصف بهجت لبطولات خاله أشبه بمشاهد من فيلم سينمائي، لكني لم استبعد صحة الرواية.

ازداد حزن الأب بعد زواج ابنتيه الواحدة بعد الأخرى من مسلمين، وكان يخطط لزواجهما في كنيسته، وأن يقوم صديقه الكاهن فيها بإتمام عقدي الزواج، لكنهما خيبا أمله، واختيارهما نكّس رأسه بين المصليّن في كنيسته حتى توقف عن ارتداء النيشان البابوي، وتجنب لقاء الأصدقاء والمعارف، ولزم بيته

وانطوى على نفسه، ومثل كل الآباء ألقى باللائمة على زوجته لأنها لم تحسن تربية أبنائهما ومن خلالها تسرّب إلحاد وتمرد عائلتها لهم.

هل أنقذ بهجت زوج أخته الحلاق وصلاته الوثيقة بضباط ومخبري الأمن العامة؟ استبعدت ذلك لأنه تمادى في التهجم على النظام ورموزه وأصلهم التكريتي، ولأقل من ذلك أعدموا الكثيرين واضطهدوا عوائلهم، فلا بد أن اليد الخفية أكثر نفوذاً من مجرد حلاق يتردد على صالونه ضباط الأمن.

ما بعد النكسة كما سموها، والهزيمة النكراء في الواقع، ليس كما قبلها، لا الحكومات ولا الشعوب ولا حتى نفسي. في ذلك العام عافت نفسي الدراسة، وتبنيت فكرة شبه عدمية، تدعو إلى الإضراب عن الإنجاب كأقصى أنواع الاحتجاج على أوضاع البشرية المخزية، حتى ينتهي الطغيان والظلم ويحصل الجميع على حقوقهم كاملة. كنت انطوائياً ولا أحب الظهور على عكس بهجت، ولم أصارح أحداً بهذه الدعوة الطوباوية سواه، أما هو فقد أقنعته ثورات الطلبة في أمريكا وأوروبا بضرورة الالتحاق بهم. كان يردد بأن عين العاصفة في أمريكا، ولمن يريد تغيير العالم عليه أن يلتحق بهم، متجاهلاً بأن

لولا حرب فيتنام وطوابير التوابيت العائدة إلى أمريكا لما تظاهر واعتصم طلابها، ورفضوا التجنيد الإجباري، ولجأ بعضهم إلى كندا.

أردنا حرباً للانتقام للهزيمة ومحو آثارها أما هو فكان يدعو للسّلام، وكل سّلام بالمطلق لا بد أن يشمل الأعداء الذين هزموا جيوشنا ودمروا مدننا وسرقوا المزيد من أراضينا. تلك كانت عقيدته، كشف جانباً منها وأخفى بقيتها، ولأني أحسنت الظنّ به لم تراودني الظنون.

تحولات بهجت سريعة، تتوقعها من مراهق قليل التجربة تتخبطه الهرمونات والنزعات، لا من رجل قارب الثلاثين من عمره، حماسه للثورة الطلابية لم يدم طويلاً، لم يبقي منها سوى المظهر، لحية كثّة وشعر طويل وقميص على الطراز الهندي. انتقل إلى موجة جديدة، صبّحني يوماً بحديث مطول عن مزايا عقائد الهنود، فلا خلاص للبشر من الضياع والتيهان في حياتهم إلا بالتخلي عن الركض وراء الماديات والتحرر من المشاعر الدنيئة أو ما يسمونها الكارما ودورات التناسخ أو السمسرة لبلوغ حالة النيرفانا الروحانية.

سألته متهكماً:

- هل ستطوق عنقك بمسبحة خرز طويلة وتسير في الشوارع مردداً هاري كريشنا هاري هاري! ومن خلفك جوقة من المريدين ينقرون على الدفوف ويتمايلون ويستجدون السّابلة؟

لم يعجبه كلامي، كتم استياءه، واكتفى بضحكة انفعال. أكملت:

- باختصار المطلوب هو التحول من التسافل إلى التسامي وهذا لا يحتاج إلى تناسخ أرواح. كلّنا نلوم أنفسنا على أخطائنا في هذه الحياة، ونعد أنفسنا بعدم تكرارها، ثم نقع فيها مرة أخرى، ونتمنى لو نبدأ من جديد لنعيش حياة أفضل، لكن ليس لدينا سوى حياة واحدة لنعمل أفضل ما نستطيع فيها.

المحادثة افتراضية، دارت داخل عقلي. تمنيتها لكنها لم تحدث، لأني وقتها أرفض الحكم على الغير ، وكما لا أفرض نفسي وفكري عليهم لا أقبل منهم غير ذلك، لكنه كان مهووساً بالسيطرة. تمرّدت الأختان عليه وعلى الأب، وتزوجتا ممن لا يراهما لائقين. هجران ساقية الحانة الألمانية كان أيضاً تمرّداً، وانتقم منها بتمزيق ملابسها وتهشيم ممتلكاتها القليلة، واضطرها للمغادرة وترك من فضّلته عليه.

في عقيدة بهجت بلوغ حالة النيرفانا والتخلص من رغبات وهموم العالم المادي لا يكون بالتأمل وترتيل الصلوات لكريشنا وكبت الشهوات فقط. لا أتذكر ما الذي قادني مرغماً إلى شقته في الحمراء. اعتاد على تغيير سكناه كل سنة أو أقل. استأجر شققاً غير مؤثثة، ينقل إليها سريراً وعدداً قليلاً من كراسي الخيزران وخزانة ملابس ببابين وموقد غازي لطبخ طعامه. من يرى أثاث شقته الرخيص يظنّه فقيراً أو بخيلاً، ومن يعرفه جيداً يدرك بأنه لا هذا ولا ذاك، كان سخياً في صرفه على طعامه، ويأكل بنهم وشراهة، وترجّاني أكثر من مرة مشاركته غداءً في مطعم جديد، وذهبت معه إلى المطعم الهندي القريب من الجامعة، وإلى مطعم أندنوسي وآخر ياباني وثالث صيني، وتلمّظ وهو يردّد علي من قائمة الطعام أنواعاً من الحساء من لحم السلاحف وأعشاش الطيور وزعانف سمك القرش، فاخترت صحناً خالياً من غرائب الطعام، وتشاركنا في دفع القوائم، وهو من اكتشف المطعم الباكستاني الكائن في طلعة مطعم أمين، الذي يقصده الطلاب عندما تكاد تفرغ محافظهم من النقود أو هم أصلاً لا يمتلكون الكثير منها.

اِلتفَتُ إلى زاوية الغرفة فلمحت كيساً من القماش، عليه كلمات بحروف صغيرة ووزن محتوياته:

- هل تعرف ما في الكيس؟

أكمل:

- عشرة كيلوغرامات من خلاصة أجود أنواع الحشيش.

ألحّت غريزة الحذر علي بمغادرة الشَقّة فوراً، وصارت تحوك داخل عقلي كلّ الاحتمالات السيئة. ماذا لو اقتحمت الشرطة الشَقّة وعثرت على الحشيش وبكمية تكفي لاتهامنا بالاتجار بالمخدرات؟ ولن يصدقوا بأني ضيف لا علاقة له بالمخدرات، وستنهال علي الصفعات واللكمات والرّفسات حتى الإغماء والسحل إلى سيارة الشرطة ثم المخفر للمزيد من التعذيب والسجن لسنوات.

استمع عقلي المنشغل بتصور حياة السجن وسط مجرمين عتاة لتفاصيل زيارته لمنطقة البقاع والصداقات التي نسجها مع مزارعي وتجار الحشيش، والمئة ليرة التي دفعها ثمناً للكيس، ولو بيع في أمستردام لكان ثمنه مئة ضعف أو أكثر. تصنعت عدم الاكتراث، لكني لم أطل المكوث في شقته.

قبل بهجت لم يكن استعمال المخدرات شائعاً بين طلاب الجامعة، والاستثناء الوحيد زميلي في السكن في الفصل الدراسي الأول، يمني على نفقة الحكومة الأمريكية. كان ينتظر خروجي من غرفتنا المشتركة في سكن الطلبة المستجدين لتناول القات مع الشاي. غاب الأستاذ يومها وعدت مبكراً فوجدته مع اثنين من مواطنيه. تجمّدت يده الممدودة في كيس قماشي، وضحك بعصبية وهو يسّتل منه حفنة من أوراق مجفّفة، أودعها في إبريق الشاي على موقد كهربائي صغير. اقترف مخالفتين: تناول مخدر ممنوع واستعمال موقد كهربائي، الأولى توصله وزملاءه إلى السجن والطرد من الجامعة، فلا أهمية للثانية، وستطالني الشبهات. فشل في كلّ مواد الفصل الأول وفصلوه من الجامعة، كان الارتياح لمغادرته أقوى من تعاطفي معه.

كان بعض طلاب الجامعة يستعينون بعقار الأمفيتامين للسهر في فترة الامتحانات، ولا أظنهم أدركوا مخاطره واحتمال الإدمان عليه. أحدهم سعودي، والده صيدلي، في درج مكتبه مخزون من الأدوية، حبوب السهر فيها أكثر من الأسبيرين، ولم يتردد في تناولها قبل كلّ امتحان، ونصحني بها وشجعني على تناولها، لكني رفضت، من دون معرفة مضارّها، لعلها ترسبات سلوكية من

الحياة القروية، عندما كان الناس يسيئون الظنّ بكلّ أنواع العقاقير، والمستشفى بالنسبة لهم أحد بيوت عزرائيل يستدرجهم إليه أطباء وممرضون ليقبض على أرواحهم.

بعد مشاهدة كيس الحشيش في شقّة بهجت انتشر استعماله بين طلاب الجامعة وكلية بيروت للنساء، وافترضت من دون دليل وجود ارتباط بين الإثنين. روت فتاة سعودية بأن صديقتها الطالبة في كلية البنات ألحت عليها لمصاحبتها في زيارة زميلتها من عائلة حكام دولة خليجية. بدا من الصخب المتسرب عبر الباب اكتظاظ الشَقّة بزائرين، وما أن انفتح الباب حتى داهمتهما سحابة من الدخان ورائحة نفاذة، جعلت الصديقة تنكص على أعقابها. سحبتها بشدة وهي تهمس بأنها شمّت رائحة الحشيش. بعد أشهر قصير توفيت شقيقة الأميرة أو الشيخة السكْرانة مختنقة بقيئها.

داوم بهجت على التردد على البلدة البقاعية، لا أتذكر اسمها، لكنها اقترنت في الأذهان بزراعة الحشيش، ومنها يهرّب إلى الخارج، ولفلسطين المحتلة حصة منها، تشتريها مخابرات الصهاينة لبيعها إلى تجار المخدرات المصريين، ولبعض قراهم ثارات مع جيرانهم المسيحيين، ولا يهابون الحكومة وقواتها،

ومن لا يحميه زعيم سياسي يحتمي بسلاحه وعشيرته، فلا مكان لمثل بهجت بينهم، لكنه وبطريقة غامضة تسلّل وسطهم، ليصبح وجهاً مألوفاً وضيفاً مأموناً.

بعد سنين قصدهم أحد أقاربي، تعرفت عليه في بلد آخر، كنا طالبين، مع فارق المراحل الدراسية، كان في المتوسطة أو الثانوية وكنت أحضر الدكتوراه. زوّجه أبوه أول شبابه من ابنة عمه. كره والد زوجته بناته لأنه انتظر طويلاً قبل مجيء الصبي، فسارع لتزويجها. طلب منه أبوه تهريب بندقية صيد من ألمانيا الغربية. بعد شراءه سيارة وبندقية فكّ أجزاء البندقية، وخبأها خلف أغطية أبواب السيارة الداخلية، واجتاز بالسيارة والبندقية المخبأة خمسة أو ستة حدود دولية، ولو عثروا على البندقية لقضى أعواماً في السجن. نجح في تهريب البندقية وفشل في الدراسة. بالعادة الفاشلون في الدراسة من أبناء مزارع ثري يساعدون أباهم في زراعة الأرض أو يزودهم برأس مال للعمل في التجارة أو المقاولات، لكن اختياره كان مختلفاً، وشاركه الأب المولع ببنادق الصيد الألمانية في وزر تلك السقطة. توجه الابن إلى البقاع في لبنان لتكرار التجربة واسترجاع مشاعر الإثارة المصاحبة للمخاطرة ونشوة النجاة من المحاسبة.

انضمّ إلى مهربي الحشيش، وتزوج فتاة منهم، وأنجبت له بنتاً، ثم قتلوه، ولا أعرف السبب، وكان قتله هيناً لأنه غريب ولن يأخذ أحد بثأره، ولم يوقفهم كونه نسيبهم وعلى دينهم ومذهبهم.

كان الحشيش أول الغيث السّام المنهمر على طلاب الجامعة، تلاه عقار الهلوسة. حينها راج استعمال الأل أس دي بين الشباب في بلاد الغرب، ولغرض في نفس بهجت نشره وبخبث بين طلاب الجامعة. واجهته معضلة الحصول على كمية كافية منه، فلا هو متوفر عند مهربين ولا يمتلك المعرفة والمواد لإعداده بنفسه. لا أدري كيف واتته الجرأة على مفاتحة كيميائي أو أكثر بذلك، فوافق أحد العاملين في مختبرات قسم الكيمياء الجامعي على تركيب العقار وإمداده بكميات منه مقابل مبلغ من المال، ولا بد أن المبلغ كان مغرياً، ليخاطر الموظف بفقدان وظيفته وسمعته وحتى السجن. احترت في تفسير سلوك بهجت المريب، وإسرافه في رشوة الموظف الجامعي وإقدامه على مخاطرة كبرى من دون الاكتراث للعواقب.

في أحد الأيام وضع أمامي حلوى مخبوزة، مثل تلك التي يقدمونها في العيدين، قال بأنه أعدّها بنفسه. اكتفيت بالتمعن فيها وامتداح موهبته

الجديدة في صنع الحلويات، وكانت ظنوني السيئة في محلها، وحلوى بهجت ليست للأعياد، ولو تناولها طفل لربما مرض أو حتى هلك، ففي داخل كلّ واحدة وضع حبة هلوسة، خيّلت للبعض بأنهم قادرون على الطيران والتحليق في الهواء، فصعدوا إلى شاهق وتردوا منه إلى موت محتم. شاهدته يهدي الحلوى لبعض المعارف، ولا أعرف إن تاجر بها أيضاً.

اعتدت رؤية الخارج عن المألوف داخل مقهى الأنكل سام ومن نوافذه، شجارات ومظاهرات واطلاق رصاص واصطدام سيارات، ورواده غير اعتياديين أيضاً، رجل منطوي على نفسه قيل بأنه من أحفاد آخر سلاطين بني عثمان، وغير بعيد جلس يوماً الشاعر محمد الماغوط، وباسل الكبيسي قبل اغتياله بيوم واحد والمغدور هاشم جواد وزير خارجية عبد الكريم قاسم وابنة رئيس وزراء عراقي سابق باحثة عن زوجها السكّير، وأغلب زبائنه يكرهون حكومة الأنكل سام، لكنهم يرتادون المقهى الذي يحمل اسمها بانتظام.

جالت نظراته الزائغة بين رواد المقهى، ثم تسمّرت على رصيف شارع بلس المحاذي، لثواني فقط، وعادت لاستعراض وجوهنا، عرفته بالوجه وأجهل اسمه، أو لعلني نسيته. حرّك يديه بانفعال، وانفلتا نحو رأسه، ليتخللان شعره

ويسرحان فوق وجهه. عصر صدغيه وكأنه يعاني من صداع. قام وقعد. تحركت شفتاه من دون صوت، فدنا منه أبو زكور، النادل العجوز الطيب، خاطبه فلم يجبه. عاد أبو زكور يحمل على صينية فنجان قهوة أمريكي، حتى القهوة في المقهى أمريكية وكذلك البان كيك والميلك شيك والدونات والبراوني. لأنه لم يطلبها فلن يحاسبه أبو زكور على ثمنها. ما أن ابتعد النادل حتى نهض بسرعة وخرج من المقهى. جلس على حافة الرصيف ومدّ قدميه في الشارع. استمرت يداه بالحراك العشوائي، وكأن الذي يمسك بخيوطها مُحرك دمى مبتدئ. اجتذبت حركاته المارّة من الطلاب وغيرهم، وتوقف أحدهم وبعد خطاب قصير من دون استجابة أكمل سيره، ثم توقفت سيارة وخرج منها رجل اقتاده إلى داخلها، وأسرعت السيارة مبتعدة.

تمنوا له شهادة في الطب أو الهندسة، لبراعته في مواد العلوم، وتبخّرت الآمال المعقودة عليه بعد إدمانه على الحشيش وحبوب الهلوسة. ضحايا الجامعة كثيرون، لأن نظامها التعليمي سادي. سيطر رعب الفشل على عقول طلابها، لأن درجة ناقصة في مادة واحدة كافية لاستلام إنذار، ولو تكرر ذلك يطرد الطالب لفصل أو فصلين، ومن بعده طرد نهائي، دفع بالبعض للتردد على

عيادة الدكتور مليكيان، المعالج النفسي المقيم. كلّما التقيته في شوارع الجامعة يستوقفني، ويتفرّس في وجهي، ويلح بالسؤال عن أحوالي. أظنه كان مستاءً مني أو مستغرباً لأني لم أزره في عيادته، وكلّ الطلاب أصحاب البشرات السمراء مثلي مرتقبون، من لم يحلّ مليكيان عقدته ينحرف، أو حتى ينتحر، والطالب الذي افترش الرصيف ذلك اليوم أدمن على المخدرات، ولم يعالجه مليكيان، وكان الأجدر به البحث عن أصل المشكلة في شقّة بهجت، حيث يحتفظ بأكياس الحشيش رخيصة الثمن وعقار الهلوسة في حلوى العيد. بعد زيارات لعيادات أطباء يأس أهله من شفاءه فأودعوه مستشفى المجانين بالعصفورية، ولم يلتقي هناك بصباح التي أوصلها حبيبها إلى العصفورية بيده كما رددت في أغنيتها المعروفة. مرّت أشهر ثم عاد للظهور في المقهى، وتكرّر المشهد المحزن، لا بد أن اشتهاء المخدرات عند المدمن أقوى من كلّ الشهوات، فهو مستعد للتضحية بكلّ شيء للحصول على جرعة واحدة، وربما تكون الأخيرة قبل القبر. خسر الدراسة والأصدقاء وحتى عائلته التي أعياها بتصرفاته فأودعته العصفورية مرة ثانية، ثم اختفى فلم نره أو نعرف شيئاً عن مصيره.

العالم السفلي حريص على إخفاء أسراره ومراذله، ليس خوفاً من السلطة، بل لحماية سمعة حماته في السلطة، ومن يخرج على هذه القاعدة يخسر الحماية. جاءت الأرملة وابنتها الشابة من دون حماية، زوجها اللبناني اغترب منذ عقود، وانقطعت صلته حتى بأقاربه، لكنه ملأ رأسها بالتباهي بأملاكه وثروة عائلته التي تركها ورحل، وعندما ألح الطمع أو العوز عليهما حزما حقائبهما وحضرا. اعتاد الماكثون استلام هبات من أقاربهم المغتربين، والأرملة وابنتها خالفا القاعدة. بعد وقت قصير يأسا من تحصيل حقوقهما. استنفر الأقارب الغاصبون لحصتهما من التركة حماتهم من السّاسة الفاسدين، فسدوا أبواب العدالة والرجاء بوجهي الأمريكية وابنتها نصف اللبنانية.

أول ما تفعله بيروت بك هو ابتلاع نقودك، وبعدها أما تبتلعك حياً أو شبه حي أو تقذفك عبر حدودها، وعالمها السفلي رمال متحركة ومن يقع فيها من دون منقذ يرمي لك بحبل لن يخرج منها إلا محمولاً على الأكفّ أو مرمياً في مزبلة أو مُغرَّقاً في البحر. نفذت النقود والإرادة على العودة من حيث أتيا، ربما هما أيضاً مصابتان بعقدة العرب المزمنة إنكار الفشل مهما كان الثمن، وقادتهما علة اللاقرار بين جحيم البقاء والفشل وبين نار العودة والاعتراف

بالفشل إلى البحث عن ترياق، وكان الشاب الذي تقيئته ليبيا بالمرصاد. زودهما بالحشيش بانتظام مقابل مضاجعة الاثنين، الأم وابنتها، والتقاط الصور الإباحية للابنة الجميلة بآلة تصوير فورية، ولا أعرف إن كانت لمتعته الخاصة أم للمتاجرة بها وشراء الحشيش، من بهجت؟ اختلس مشرد عراقي صورتين. ادعى موهبة الشعر، وبعد صعلكة طويلة في أزقة بغداد وشوارع بيروت وتصحّر الموهبة المزعومة، قبلوه بمعجزة أم بيد خفية؟ للهجرة إلى أستراليا، ومات هناك. أبرزت الصورة الأولى مفاتن الفتاة العارية تماماً، وأظهرت الصورة الثانية الليبي والابنة في وضع جنسي فاضح، وأخبرني أحد المعارف الذي اختفى أثناء الحرب الأهلية بأنه واثنان من رفاقه استدرجا الفتاة إلى لقاء في شقّة بقطعة صغيرة من الحشيش، وبأنها ليست غبية أو متخلفة عقلياً حتى لا تدرك الثمن، لكن في اللحظة الأخيرة استنكف صاحب الشَقّة، ويبدو بأن الليبي قد هجرهما أو نضب معينه من المخدرات

انشغلت عن بهجت بالخدمة العسكرية. أفاق حكام بلدي المبتلى بالطغيان والظالمين من أهله على قرار خبيث. كانوا زمرة من العالم السفلي، من نائب عريف وبائع لقوالب الثلج وفاشل في الدراسة وأمثالهم. أجمعوا

أمرهم على تحقير خريجي الجامعات الراغبين في إكمال دراساتهم العليا، بقسرهم على قضاء سنة كاملة في الخدمة العسكرية الإلزامية، وبرتبة جندي لا ضابط كما في السابق، وليذوقوا الهوان على أيدي الفاشلين والسقط من البشر الذين رقوهم لرتبة ضابط بعد ستة أشهر فقط من التدريب لأنهم من الحزب الحاكم. كنت مستعداً لشراء جنسية بديلة، ولو توفرت لي حينها إثنتى عشرة ألف ليرة لدفعت بها للمحامي الذي وعدني بجنسية لبنانية أصلية لا مزيفة، لكن أولاد أبي سبقوني واستولوا على نقوده. خلال الأشهر التي قضيتها مرغماً في البدلة الخاكية الملطخة بهزائم وجرائم ما قبل وما بعد وصول الطغاة الأوغاد إلى الحكم تعايشت مع أردأ البشر، وبعد ستة أشهر أعسرت الحكومة فسرّحت بعد دفع بدل نقدي.

تأخرت في الالتحاق بصفوف الدراسات العليا، فأجلوا قبولي للفصل الثاني. أنقذني نادل مقهى الأنكل سام، كانوا ثلاثة المسلم أبو زكور والثاني مسيحي نسيت اسمه، ترجاني الذهاب معه إلى معقل المسلمين السنة في منطقة طريق الجديدة بجوار جامعة بيروت العربية لاستشارة بصّارة تنبأت باغتيال رياض الصلح فرفضت مقابلتنا من دون تبرير، والثالث مسيحي طويل أصرّ على

منادتي بالشيخ، من دون معرفة أن أبي شيخ قبيلة بالفعل، لأني كنت أجزل له الإكراميات. تمنيت لو أتذكر اسمه لأشكره مرة أخرى. رأني مكتئباً فسألني عن السبب وأجبته، وتلك المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي تتزامن فيها الصدفة الرائعة والتوفيق. دخل أحد مسجلي الجامعة المقهى مع رفيقه وجلسا بجوار النافذة، فتوجه له النادل الطيب وكلّمه مشيراً إلي، فنادني المسجل ليبشرني باستطاعتي الدوام في الفصل الأول.

بعدها بأيام التقيت بهجت في المقهى. لا أتذكر إن اجتذب اهتمامه مثل غيره من المعارف هزالي وسمرة بشرتي الزائدة نتيجة التدريب على المشي والاستدارة إلى الخلف واليمين واليسار لساعات تحت أشعة الشمس الحارقة يومياً عدا الجمع في المعسكر الصحراوي. في غيابي استأجر شقة في مبنى سكناي، سماه كوميوناً، لا اقتداءً بكومونة باريس بل صنو أوكار الهبيين، التي تناولوا فيها المخدرات وأقاموا حفلات الجنس الجماعية. اجتذبت كوميونة بهجت طلاباً وطالبات من الجامعة، بينهم ابنتان لسفير سعودي سابق. روى تفاصيل زيارة السفير السابق وتوسلاته وعلى محياه ابتسامة صفراء تكشف عن خليط من مشاعر التشفي والسّادية. فشل الأب المكلوم بسلوك ابنتيه في

إقناعهما بترك شقة بهجت. كان إغراء الجنس والمخدرات والخمور أقوى من الشفقة على دموع الأب العجوز، لو كان في نفسيهما شيئاً من الشفقة. تذلّل لبهجت ليحثّ الابنتين على ترك الكوميون والعودة للدراسة. سبقه مالك المبنى بإبطال عقد الإيجار والطلب منه إخلاء الشَقّة فوراً لانتهاكه شروط العقد باستعمالها لأغراض أخرى غير السكن الشخصي، فانفضت الكوميونة، وعادت البنتان لبيت أبيهما والدراسة في الجامعة. تذكرت إحدى البنتين. يومها قصدت مكتبة يافث الجامعية لقراءة فصول أو صفحات من كتاب مقرّرة من أستاذ إحدى المواد، ولتوفير الكتاب لكافة طلاب المادة احتجزه الأستاذ في القاعة المخصصة لذلك في الطابق الأسفل. استعرّت الكتاب، وجلست في أول كرسي فارغ قريب. في ذلك الوقت من النهار تكون القاعة عادة مكتظّة. جاءت ابنة السفير، وقتها أجهل بأن والدها سفير، وجلست قبالتي. ألقيت عليها نظرة فضولية وعدت لكتابي. بعد قليل سمعت صوتاً شتت تركيزي، فرفعت أنظاري عن صفحات الكتاب، لأجدها تحفر بقلمها على الطاولة. استأت من تصرفها الصبياني، لكن فضولي دفعني لمحاولة قراءة ما نقشته على طاولة المكتبة، كتبت بالإنكليزية بأنها horny. جهلت معناها، واعتدادي

بمعرفتي باللغة جعلني أهملها، وحكمت عليها بأنها كلمة عامية سمعتها الطالبة من زميلة أو في فيلم أمريكي، ذكرتني بتلك السعودية التي قضت سنة واحدة في ثانوية أمريكية، ورجعت ترطن بمفردات السّب الفاحشة، ترددها متفاخرة على مسامع زميلاتها في كلّية بيروت للنساء، لذلك لم أنهض من مكاني للبحث عن معنى الكلمة في قاموس أكسفورد المنصوب على منصة غير بعيدة عن مكاني. بعدها بزمن عرفت معناها: مهتاجة جنسياً. أذهلتني وقاحتها، ولو أحد غيري يعرف معنى الكلمة لعدّها دعوة صريحة وفجّة لممارسة الجنس، ومع غريب لم تلتقي به من قبل ولا تعارفا. في مواقع التواصل الاجتماعية صورة لها وهي فتاة صغيرة، تنحني على يد ملك لتقبل يده أثناء زيارته لأمريكا. اختفت ملامح البراءة التي علت وجه الطفلة، لتحل محلها قسمات امرأة متهتّكة.

تبددت نشوة المخدرات التي دخنها وابتلعها بهجت في الكوميون، وبقيت تلك التي خلفتها تذلّل وتوسلات السّفير السعودي المتقاعد، لذة نفسية مريضة، خليط من السّادية ونزعة السيطرة وتملك الآخرين، كشف عنها من قبل في انتقامه من الألمانية لأنها هجرته، وفي نوبات غضبه المفاجئة، تنفجر ثم تخمد مثل بركان عجوز، أي نقمة تسكن عقله؟ وأين وكيف بدأت ولم

تنتهي؟ أيسر التحاليل أن يكون مسكوناً بالشياطين، وهل كانت هبات والده للكنيسة نذوراً لخلاص ابنه الوحيد من شياطينه؟ هو مهووس بالانتقام وأنا بمحاولة فهم الآخرين.

"قضت ليلة البارحة معي في الشَقّة...طبخت لها طبق بامية مع الأرز ولعبنا سوية"، لا يقامر بهجت ولا يحتفظ بورق لعب أو قواقع البرجيس الصناعية، لكنه يتقن اللعب على البشر، والضعفاء طرائد سهلة، ومشروعة لدى البعض. رفيقة اللعب في ذلك اليوم طالبة جامعية، من عائلة بصراوية ثرية، تدرس على حسابهم، سمراء متوسطة الطول، وأقرب إلى الدمامة منها إلى الحسن، ودودة وتتقرب للجميع، هي مثل الكثيرين من طلاب الجامعة، جلبت معها عقدتها النفسية، وغادرتها بمزيد من العقد. داوى طالب سعودي عقدته بالانتحار شنقاً، وهي داوتها بإطفاء سجائرها براحة يدها. عندما يستقر مصدر العذاب داخل النفس فأما تنهيه بالموت أو تلهيه بالمخدرات أو تعذّب الجسد مكمن العذاب، وقادتها ماسيشيتها إلى السّادي بهجت. قرفت من زميل لبناني فشل في الدراسة فطردوه من الجامعة يوم جاء ليخبرني بأن رفاقه استدرجوا فتاة شابة تعاني من إعاقة عقلية، وتناوبوا على اغتصابها لكنه استنكف، لم يقل

بأنه ترجّاهم ليتوقفوا فتجاهلوه، ثم حملته شهامته على منعهم بيديه من اغتصاب ضحيتهم فتكاثروا عليه. اكتفى بالتعفّف. كانت البصراوية يوم اللّعب مع بهجت أشبه بتلك الفتاة. لو قابلتها في الجامعة سأقول لها بأن بهجت يطبخ البامية في نفس القدر الذي يغلي فيه ملابسه الداخلية الملوّثة، ولو شمّمت رائحة براز في مرق البامية فلأنه لم يغسل القدر جيداً بعد غلي كلسوناته.

حضر يوماً إلى مقهى الأنكل سام بصبحة رجل ستيني، سأسميه عجو، مهندس تخرج من جامعة أمريكية مرموقة. أخرج غليوناً ونظفه بفرشاة رفيعة وملأه بتبغ إنكليزي المنشأ، وأشعله بقداحة رخيصة، ومجّ عدة أنفاس منه ثم آنسنا بسرد مطوّل لرحلته إلى أمريكا للدراسة. في صوته بحّة عزوتها لتدخين تبغ الغليون بشراهة. في عام النكبة الذي ولدت فيه ابتعثوه، واختار السفر بالباخرة، أو لم يجد وسيلة أخرى أرخص، مسقط رأسه الموصل، والخبثاء يربطون بينها والبخل، لكن أصل عائلته من بلدة تلكيف. بعد تخرجه من الجامعة صمّم على إكمال دراسته العليا، حتى من غير موافقة إدارة البعثات، وبعد التخرج عاد لوطنه، ليحاضر في جامعة بغداد، ومنها إلى الجامعة

التكنولوجية، وبموافقتها التحق بإحدى منظمات الأمم المتحدة، ليعمل مستشاراً في التعليم المهني في أثيوبيا. شاءت الأمم المتحدة أن يعمل مع صهيوني من مغتصبي فلسطين.

بلغ الخبر سلطات بلده، تبرع به أحد مواطنيه ، كسباً لرضا الحكام، فألغت جواز سفره. بعد انتهاء مدة العقد جاء إلى بيروت بجواز أممي.

- ما ذنبي؟ الأمم المتحدة من أمامي وحكومتي من خلفي.

أفرغ التبغ المحترق من غليونه في منفضة السجائر، وأكمل:

- عملت معه مضطراً، حتى لا أفسخ عقدي مع الأمم المتحدة، وما صاحبته أو زرته، فلم عاقبوني؟

تعاطفت معه بالإيماءات والنظرات من دون كلام، خشية التقارير. تقرير من واشي في الجامعة التي تخرجت منها في بريطانيا أوصل زميل لسجن محكمة الثورة، ولولا أن الواشي المفتري أحجم عن القسم على شهادته لكان مصير زميلي الإعدام. التقيت به صدفة بعد الإفراج عنه ولم أتعرف عليه لأول وهلة. ستة أشهر في السجن أضافت سنين إلى عمره وشابت شعر رأسه.

- أخاف من السفر بجواز سفر الأمم المتحدة ومن الصفعات التي سيتلقونني بها في المطار.

ربط عجو بين وضعه البائس والماسونية:

- لو كنت ماسونياً لما خفت.

وأردف تحسره بنصيحة:

- إذا أردت الوصول إلى القمة فلابد لك من الانتساب للماسونية.

عجو كاثوليكي ومحرّم على طائفته الانتماء للماسونية. أبدى إعجابه بالماسونية وتحسّر على تفويته الفرصة للانتماء لها أمام قاسم، وعندما عرف بوظيفة أبيه المرموقة قال له بثقة:

- اسأل أباك إن كان ماسونياً؟ لا بد أنه انضمّ لهم ليترقى لمنصبه العالي.

بان الغضب على وجه قاسم. عوده سريع الاشتعال، كلمة واحدة كافية، ومن بعدها كافة الاحتمالات ممكنة، صراخ وشتم وحتى دعوة لعراك بالأيدي، كنا نتجنب استفزازه لئلا ينفجر غاضباً. كظم غيظه بصعوبة، قال لي بعد حين:

- لو لم يكن عجوزاً خرفان لأدبته!

عجو صديق قديم لعائلة بهجت، ومطّلع على الكثير من أسرارها، وكشف لي البعض منها، من دون اكتراث لامتعاض بهجت الواضح. أخبرني بتعرض بهجت لاعتداء جنسي من خادمة أو مربية. وجدوها وقد ألصقت فمها بأعضاء الطفل الرضيع التناسلية فطردوها. فشل بهجت في دراسته بكلّية التعدين في الاتحاد السوفيتي، والقبول فيها مقصور على مواطنيه، لكنهم استثنوه من القاعدة، ربما بوساطة خاله الرفيق الذي قاتل قوات فرانكو مع الكتائب الشيوعية. اضطر لتركها بعد فترة قصيرة، وانتقل إلى إنكلترا لإكمال دراسته الثانوية، واستأجر غرفة بمنزل عائلة، و تعرف على ابنة العائلة المراهقة الجميلة، و اصطبح بها، وشاهدها في ملابس نومها، وأكثر من مرة لا يسترها سوى ملابسها الداخلية، ولعله تلصّص عليها في الحمام، وتناول فطوره المشمول بأجرة البيت معها، وأمتعها بقصص طريفة من بلاده ومشاهداته في سفراته، حتى تولّهت به الفتاة المراهقة. في غفلة من والدتها قضت ساعات في غرفته، واستغل غياب الأبوين أحد الأيام ليمارس الجنس معها. لم يقل إن كانت عذراء من قبل.

يبدو أن التجربة لم تنل رضاها، أو أنه أهملها بعد نيل الوطر منها، فانتقمت منه بالسخرية أمام صديقاتها من عضوه الذكري الصغير، وتناقلت الصديقات حديث الابنة حتى وصل إلى مسامع الأبوين. سارعا للاتصال بالشرطة فاستدعوه للتحقيق والمواجهة مع العائلة، ولا أعرف إن أنكر أو اضطر للاعتراف بفعلته. حاكموه بتهمة اغتصاب قاصرة، وفي ذلك الزمن عقاب جريمته الحبس والتسفير وحظر دخوله البلاد، لكن القاضي اكتفى بالحكم عليه بالتسفير. تمنيت لو لدى عجو المزيد من التفاصيل، عن سر الحكم المخفّف، ووصف لإجراءات التسفير. لا بد أنهم أرسلوه مخفوراً إلى المطار، ورسغا يديه مكبلتان بالأصفاد، وحاولت تصور مشاعره وهو يسير بين المسافرين في ذلك الوضع المهين، حتى أوصلوه داخل الطائرة.

استمع بهجت بصمت لرواية عجو عن غوايته للمراهقة الإنجليزية ومحاكمته وطرده من بلادهم. لم يعترض أو يصّوب بعض تفاصيلها. بعد انتهاء عجو التفت إلي وهو يبتسم:

- كانت "بمبونة".

برر فعلته وما جرت عليه من قطع دراسته وفضيحة المحاكمة وذلّ الطرد بكلمة واحدة، لأنها "بمبونة". وضع اللوم كلّه عليها، فهي أغرته بحسنها وشبابها، فاستجاب لها، ولسان حاله يردد: وهل أنا قديس؟ ما أشبهه بالمتحرشين بالنساء في شوارع وأسواق مدن العرب، ولو سائلهم أحد لرموا التهمة على غير المحتشمات الغويّات، وبرّؤا أنفسهم الأمارة بالسوء.

سكت بهجت على فضح عجو لأسراره، التي لم يبح بها لأحد من قبل، ليس خجلاً ولا توقيراً للرجل العجوز، ولبهجت لسان سليط استخدمه في الدفاع والهجوم، لعله خشي من ردة فعله، فلو احتج لربما كشف العجوز أسراراً أدسم وأشد خدشاً لسمعته.

- أصل عائلتي من جورجيا.

حل بهجت الجورجي محل العربي. استعمر العثمانيون مقاطعات من جورجيا، وكعادتهم استعبدوا البعض منهم، أو لعلهم اشتروهم من التتر النشطين يومها في شنّ الغارات واختطاف النساء والأطفال لبيعهم في أراضي الإمبراطورية. غرّبهم العثمانيون عن وطنهم، كما تقتلع الشجرة من جذورها، وأسكنوهم في الشمال، فاختلطوا بسكانه، وانتسبوا لهم. نبش بهجت عن أصله، فوجده

مغايراً لجيرانه، لكنه لم يخفيها أو يطمسها، ولا ينتسب أحد لقوم إلا ليفتخر بهم ويميز نفسه عن الغير.

استلم عجو الأمان من الحكام، بوساطة أقاربه. استجمع شجاعته وسافر. لم يصفعوه في المطار، وأعادوا له جواز سفره. عجو وبهجت من المغفور لهم أما أنا فلا غفران لي، وسأدخل القبر من دون هوية وجواز سفر.

على الجهة الأخرى من شارع بلس مقابل مبنى الرجال الجديد لسكن طلاب الجامعة في الصفوف العليا مبنى سكني، وفي الدور الرابع أو الثالث سكنت عائلة، من أصل قبرصي. كانت الشَقّة مقابلة تماماً للغرفة التي سكنت فيها لعام كامل. اعتادت ابنة القبرصي الجلوس برداء النوم على أرجوحة في شرفة شقّتها، ليتلصّص عليها طلاب الجامعة. أغرم بها جارنا الأردني، نشترك معه في الشرفة، ينتظر خروجها ليتأبط قيثارة وكرسياً. لا يتقن العزف فيزعجنا بألحان نشاز، تدفعنا لإغلاق باب الشرفة، والسخرية من غرامه اليائس. في ذلك اليوم اجتمع في غرفة استقبال القبرصي بهجت وآخرون والدكتور صادق جلال العظم المطرود حديثاً من الجامعة، وأشيع بأن قرار الطرد صدر من شارل مالك، وبأن مالك الذي أقنع استاذاً مسلماً بالتنصر استاء جداً من كتاب العظم

نقد الفكر الديني، كما ادعى الكويتي عبد الله النفيسي بأنه وآخرون قادوا حملة ومظاهرات أدت إلى قرار الطرد، ولا أتذكر مظاهرات مناوئة للعظم، والمؤكد أن طلاب الجامعة اعتصموا وشجبوا طرده. بطريقة ما تسلّل بهجت الطالب في الكلّية الأرمنية للوسط الأكاديمي في الجامعة وشقّة القبرصي معبراً عن استنكاره لقرار الجامعة، التي رفضت قبوله قبل سنين.

ما بين ليلة وضحاها أصبح بهجت مناضلاً، عرفته في البدأ موظفاً عند الرأسمالية، ثم تحول إلى الهرطقات الشرقية، ومن بعدها المخدرات والكوميونية، وكان من قبلها من ركاب قطار السّلام الدموي والملوحين بحبال السحل ومولعاً بـ"البمبونات"، ومن ثم مناضلاً مع المنظمات الفلسطينية.

في أوائل السبعينيات جاءت إلى لبنان موجتان بشريتان، فلسطينية كبيرة وعراقية صغيرة، الفلسطينيون لمواصلة العمل الفدائي والشيوعيون واليساريون العراقيون هرباً من بطش الحكام، فنزع بهجت عنه فكر ومظاهر الهبيية وتحول إلى مناضل.

لا نتعجب من اعتكاف دودة في شرنقة ثم انطلاقها كفراشة، لأنها أطوار من الطبيعة، على الرغم من غرابتها، أما تحول بهجت إلى مناضل فمفاجأة غير

متوقعة، اختار التكتّم عليها بينما جاهر النشطاء الآخرون بها، وتباهوا أحياناً، واكتسبوا بها شعبية طاغية بين فتيات الجامعة وكلية النساء، لا تضاهيها سوى مهارة الرقص لأحد المصريين أو امتلاك سيارة سباق، إلا بهجت، وأخفاها حتى عني، مع أني كنت البديل المتاح لكاهن الاعتراف عنده.

شهد خالد على ذلك:

- كان يعمل معنا.

خالد لبناني تقدمي، مناصر للقضية، وعمل مع المنظمات الفلسطينية. جاءت تلك الشهادة متأخرة جداً، وما محت شيئاً من الظنون.

لو شارك بهجت في المظاهرات الطلابية لشاهدته أو سمعت بذلك، ولو رمى حجراً على السفارة الأمريكية، كما فعلت أنا ذات مرة، لتذكرنا ذلك سوية وما سمعته من كتائبي قيادي من أتباع آل الجميل يومها مسترجياً:

- لا يا شباب!

ونسيت باقي كلماته، لكن كتائبياً آخر نافسته في انتخابات مبنى السكن الداخلي كشف عن الوجه الحقيقي لمنظمتهم الفاشية. كنا واقفين عند سياج شرفتين في السكن، هو أعلى مني بدورين، فبصق علي، وتفاديت لعابه المسّموم،

وعندما سمع بذلك شقيقي، وكان وقتها على الطريق السّويّ، ترصّده في المصعد وصفعه. اشتكى الكتائبي لجماعته مدعياً بأننا اعتدينا عليه لمجرد كونه لبنانياً. استيقظت الحميّة الوطنية لعلي عبيد، فجاء ليبحث عنا، وذاع الخبر بين الطلاب، فاستنفر التقدميون لحمايتنا، وكان بمقدمتهم فلسطيني هدّد باستعمال مهاراته في الكاراتيه، فانسحب علي عبيد معتذراً بجهله بتفاصيل المواجهة مع الكتائبيين، وأخبرني بأنه قومي مثلنا.

دخل بهجت مقهى الأنكل سام بصحبة وجه غريب في إحدى الأمسيات، كنت على وشك المغادرة إلى شقتي، فما أن يحل مساء، حتى في بيروت، أو أي مكان زرته، حتى تسري كآبة في نفسي. جلس الغريب في زاوية والتصق به بهجت. شاهدني فدعاني للانضمام لهما. عرّفني على الغريب، تونسي يعمل مع الجبهة العربية. خريج جامعة أكسفورد. كنت أنوي تجربة حظي والتقدم للجامعة بعد الماجستير. شهادة من أكسفورد ستصعد بي إلى القمة وتجنبني شرور حكام بلدي، أو هكذا خدعت نفسي. قُبلت في أكسفورد بعد سنة أو أكثر لكنهم لم يجدوا من يقبل الإشراف على بحث الدكتوراه حول دور المستشارين البريطانيين في بلدي. سألته عن الكلّية التي تخرج منها في أكسفورد، وفي الصورة

المتخيلة أو الحقيقية لخريجي أكسفورد تتصور شخصيات رزينة ووقورة، اكتسبت برودة أعصاب الإنجليز، إلا ذلك التونسي، المناضل في الجبهة العربية التابعة لحكام بلدي، فما أن انتهيت من السؤال حتى اشتعل وجهه بالغضب.

مدّ رأسه باتجاهي، وفحّ بوجهي حتى شممت رائحة فمه:

- انتبه! فأنا لا اخرج من دون مسدسي.

كانت كلماته واضحة ومفهومة لا مثل ذلك الطالب التونسي الذي عرّفني عليه قاسم فلم أفهم مفردة واحدة من كلامه. سألته عن الكلّية التي تخرج منها فأجابني بتهديدي بمسدسه، أي مناضل هذا؟ تململ بهجت وصمت. لو أخرج التونسي مسدسه فليس لي من سلاح أدافع به عن نفسي سوى منفضة السجائر الزجاجية الثقيلة، وتخيلت ضربة واحدة على رأس التونسي المعتوه لافقاده الوعي أو حتى قتله. قمت وتركتهما من دون تحية.

أرابني سلوك التونسي، واحترت في تفسيره، فلو كان كاذباً بادعاءه التخرج من أكسفورد لأكمل بكذبة أخرى، أو حتى تغيير الموضوع أو الاستئذان لاستعمال دورة المياه، لكنه لجأ لمسدسه، ليخوفني من نبش أسرار أخرى عنه، لكن أي أسرار حرص على كتمانها؟ أشد الناس خشية على أسراره هو الجاسوس.

عندما التقيت بهجت في بغداد بعد تلك المواجهة مع التونسي العدائي توقعت منه اعتذاراً، لكنه اكتفى بدعوتي لجولة في سيارته، مررنا بمكتب قريب لمنظمة كردية. مدير المكتب كردي بَدين بشوارب مفتولة على الطراز الإنكليزي التقليدي. تجاهلني وخاطب كردي آخر دخل المكتب:

- هذا بهجت الذي زار بلداً مجاوراً.

لا أتذكر كلامه حرفياً، لكنه بالتأكيد شهد على زيارة بهجت لبلد مجاور ، اختار عدم ذكر اسمه. قالها وهو يهز يده وكأن بهجت صنع معجزة أو أنجز مهمة لا يجرؤ أحد عليها. ذكرني بالكردي شريك الكندي المحتال الذي اختلس أموال وكالة السفر اللبنانية. استعرضت في ذهني كلّ بلد "مجاور" لا يسمح بزيارته إلا سراً فلم أجد سوى الكيان الصهيوني.

بعد العودة إلى بيروت والمقهى المعتاد جاء بهجت مع آخرين، أحدهم صحفي كردي معروف، أغلقوا صحيفته بسبب خلاف جماعته مع الحكومة وصلاتهم بالصهاينة قديمة، عامله بهجت بحفاوة بالغة حيرتني. بهجت المناضل مع الفلسطينيين بصحبة كردي معروف بصلاته بالصهاينة! تناقض

يصعب فهمه، ويوقظ ظنوناً تفضل طمسها، حتى تتخمّر وتنبعث روائحها المزكمة للأنوف والنفوس، ولم أنتظر طويلاً.

عودة إلى مقهى الأنكل سام، كنت فيه المشاهد والمشارك بدور صغير في سيرة بهجت. على يمين المدخل طاولة ملاصقة للنافذة المطلّة على تقاطع شارعي بلس وجان دارك، مقابلها مطعم عمي الزعيم لبيع الفلافل، ومن خلالها بإمكانك عدّ قرون الفلفل الحار المرصوفة على صحن عند مخرج المطعم. جلس حول الطاولة بهجت وباسل الكبيسي وآخرون، وبعد تردد سحبت كرسياً وانضمّيت لهم. الكبيسي قيادي في الجبهة الشعبية، ولا أعرف صلة بهجت به. في اليوم التالي سافر الكبيسي إلى باريس حيث اغتاله الصهاينة. لم أفطن إلى احتمال وجود ارتباط محتمل بين الحدثين إلا بعد حين والكثير من الظنون.

أمام مبنى دوج هول أو قاعة دوج صادفت أبا سيف، شيوعي هارب من حكامنا الجائرين، وأبو سيف لقبه الحركي. صافحني بحرارة، وقادني إلى المقعد المقابل للمبنى. قال لي بأنه جاء لملاقاتي. كان الوقت عصراً، والمكان شبه خال، وتسمع من أدوار المبنى القديم العليا ضوضاء دبك أرجل وتّهليل.

يتهافت طلاب من دول الخليج ومجتمعات أخرى محافظة على حضور مادة تعلم الرقص، فقد تكون فرصتهم الوحيدة لمراقصة فتيات من دون دفع ثمن لأرتيستات ملاهي الزيتونة العفِنة، وستكون من أعز ذكرياتهم الجامعية، رقص مجاني مع طالبات الجامعة ودرجة عالية في المادة ترفع معدلاتهم. اختلط صوت الدبك مع موسيقى كلاسيكية، فبجوار قاعة الرقص ينعقد درس تذوق الموسيقى، وأغلب المسجلين لن يتذكروا شيئاً عن روائع الموسيقى لكنهم سيفرحون بالدرجات العالية شبه المضمونة.

- نحقق في كون بهجت عميلاً للصهاينة.

لا يتحمل تصريح أبي سيف المزاح، وقاله بثقة ويقين، لكني أرجأت تصديقه حتى يتبين خط الخيانة الأسود من خيط البراءة الأبيض، وحتى الخائن بريء حتى تثبت إدانته. غاب أبو سيف وانقطعت أخباره، وظل اتهام بهجت بالعمالة معلقاً، وأثار اختفاء بهجت احتمال تصفيته بعد ثبوت التهمة عليه.

مرّت سنوات، احترق لبنان بنيران الحرب الأهلية التي أشعلها عملاء الصهاينة، وانقطعت عن زيارته ثلاثين عاماً. بعد عودة غبية إلى مسقط رأسي التعيس اتصل بهجت، كان حياً يرزق ومغرم بجارته الشيعية، ويروم الزواج

منها بالرغم من ممانعة عائلتها، وطلب مني بوقاحة جواز سفر زوجتي السعودية. ليزيل الصورة الملصقة عليها ويستبدلها بصورة حبيبته ويسافرا إلى الخارج ويتزوجا "خطيفة"، فرفضت. بعد أسابيع اتصل مرة أخرى ليزفّ لي خبر زواجه. رضخ لطلب أهل الحبيبة، وذهب معهم إلى مقام الإمام العباس بن علي بن أبي طالب ليشهر إسلامه ويقسم على ذلك، وعند الشيعة اعتقاد بأن القسم الباطل بالعباس متلِف أو حتى مهلك. استشفيت من لهجته استهانة بالطقوس التي فرضها أهل عروسته.

انقطعت أخباره عني أثناء السنوات الأربع العجاف التي قضيتها مرغماً في مسقط رأسي، ولم أسمع أخباره. بالصدفة قرأت خبر مقتله بقذيفة دبابة أمريكية. سمع بوصول قوات الاحتلال الأمريكي فركب سيارته مسرعاً لتغطية الخبر. عمل وقتها مراسلاً من غير تعاقد مع الصحافة الفرنسية. ارتاب طاقم الدبابة بسيارته المسرعة فعاجلوه بقذيفة. دفنوه في حديقة منزله لتجنب مخاطر نقل جثمانه إلى المقبرة، وتساءلت مع نفسي إن كانوا سيدفنونه في مقبرة إسلامية أم مسيحية، أو لعلهم دفنوه في الحديقة لئلا يضطرون إلى مواجهة اختيار صعب.

في زمن انحسار الأقنعة عن دول وحكومات مستسلمة وعميلة استحضرت ذكرى بهجت، ولاحقني صدى صوت أبي سيف المختلط بضوضاء دبكة شرقية وموسيقى كلاسيكية محذراً من عمالة بهجت للصهاينة، وتذكرت سيرته أو ذلك الجزء الظاهر للعيان منها، بدأها موظفاً لدى الرأسمالية النصّابة، واختتمها مؤسساً لمصرف أهلي في بلد الاشتراكية الزائفة والوحدة شبه المستحيلة والحرية المعدومة، وتوقفت ملياً عند زائره المجهول المُتردّد على لبنان نزيل فندق فينيسا الفخم والفتاتين المراهقتين "البمبونات" اللتين نذر بهجت غشاء بكارتهما له، وهو المعترف على نفسه بولعه بالبمبونات الإنكليزيات وغيرهن، وهو تنازل لا يصدر إلا من مرؤوس ذليل لرئيس طمعاً برضاه، فلو صدّقت اتهام أبي سيف فلابد أن الزائر الغامض هو المُشغِل والمتحكم بالعميل الجاسوس بهجت. وجدّدت اندهاشي من حكم المحكمة البريطانية عليه بالطرد من البلاد بدلاً من السجن لسنوات بتهمة اغتصاب قاصر، ومثل ذلك لا يتحقق من دون توسط أصحاب النفوذ من ساسة أو رؤساء مخابرات، أو لعلها بداية مسيرة العمالة، إفراج وتسفير مقابل خيانة. ولا تفسير بريء لقضاءه ليلة واحدة فقط موقوفاً في مخفر حبيش بعد

مظاهرته الصاخبة وتوزيع المناشير في شارع الحمراء، وفي زمن المكتب الثاني الذي قد يرمى فيه المتهم من نافذة مخفر ليلقى مصرعه على الرصيف، ومن يعترض ويتظاهر يلقى صفعات مثل ذلك الطالب السعودي الذي تخرج ليترقى إلى سفير وعضو فعال في جهاز مخابرات بلده، فليس بهجت وحده مثال على انقلاب الشخصية انتماءً من يسار قطار السّلام حامل حبال السحل الأحمر إلى أصفر العمالة والرأسمالية والسيارات الفارهة وأقلام المونتبلان الثمينة. قتلوا قريبي الشيعي نسيبهم لكنهم رحبوا ببهجت المسيحي، والاثنان عملا معهم في تجارة الحشيش اللبناني، والبعض من محصولهم عبر الحدود مع فلسطين المحتلة لتهرّبه المخابرات الصهيونية إلى مصر ما قبل وبعد النكسة، وما لم يصدّر نقله بهجت إلى طلاب الجامعة مع حبوب الهلوسة، والعميل لا يجمع المعلومات ويدبر المؤامرات بل يخرّب العقول والنفوس أيضاً، وما أعجب من انقلابه بسرعة لينضم إلى أفواج الفدائيين في لبنان، وكان يعمل معهم بشهادة خالد والتونسي الذي هددني بمسدسه جواباً على سؤالي البريء عن اسم الكلّية التي تخرج منها في جامعة أكسفورد فتأكد لي بأنه لا فدائي ولا يعرف من أكسفورد سوى اسمها، وتتعزز الظنون وأنا أراه جالساً بالقرب من

باسل الكبيسي في مقهى الأنكل سام البيروتي ساعات فقط قبل اغتياله من قبل المخابرات الصهيونية في باريس، ولا أنسى شاربي الكردي المفتولين وتلميحه لزيارة بهجت للبلد "المجاور"، فلو لم يكن غير الكيان الصهيوني لصرّح باسمه، ثم اصطحابه للكردي رئيس تحرير الجريدة السابق والمعروف بصلاته بالصهاينة.

لا يخامرني الشك في كونه حاقداً، على من أستعبد أجداده الجورجيين وأسكنهم في شمال العراق، وعلى الشيعيين اللذين تزوجا شقيقتيه فانكسر قلبا والديهم، والألمانية النادلة في حانة بمنطقة الحمراء، وحتى راكب الدراجة النارية الذي أزعجه فشاورته نفسه بقتله، وربما غيرهم لم أسمع بهم. كلّ الخونة والعملاء حاقدون، تحفز وتبرّر أحقادهم العمالة، ويبتغون فيها تنفّيساً لمشاعرهم الخسيسة، لهذه الأسباب حكمت على بهجت بالخيانة والعمالة للصهاينة.